

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الحادي والعشرون

تأليـــف:
فضيلة الشيخ / محمد الصادق ابراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ – ١٩٣١م

لـم يثبت قط أن النبي ﷺ تعرض في غزواته لغير من نصب له ولمجتمعه الحرب، بل كان يوادع من لم يتعرض لحربه:

ولو كان النبي ﷺ يريد بغزواته مجرد قتال يُكره به الناس حتى يؤمنـوا بدعوته، ويدخلوا في دينه، ويؤمنوا برسـالته لكان أحرى أن يكـون ذلك مع من كان يقيم حـول المدينة من القبائل، ولكنه ﷺ كان يخـرج في طلائـع غزواته مع نفر من أصحابه المهاجرين خاصـة، لـم يكـن فيهم أنصـاري ليلقى عيـر قريش وهـي تحمل تجارتهم، وفيها أموالهم، وما نهبوه من أموال المهاجرين ليغنمها ردًّا على ما صنعوا في مكة وفي بدء الهجرة مع المسلمين(١)، ولم يكن يخرج لقتال، وكان ﷺ يوادع من يلقى في طريقه من القبائل التي لم تنصب له الحرب.

يقول ابن إسـحاق: غزوة ودان هي أول غزوات النبي ﷺ خرج لهـا مـن المدينة فـي صفر على رأس اثنى عشـر شـهرًا من مقدمه المدينة، يريد قريشًـا، فوادع بني ضمـرة بن بكر بن عبد مناة من كنانة، وادعه رئيسـهم مخشـيّ بن عمرو الضمري وكان سـيدهم

(١) لقد كان سـبب الهجرة الانتقال إلى بيئة آمنة مناسـبة لنشر الإسلام ولم تكن للانتقـام مـن قريش على إيذائهم له ﷺ ولأصحابه، ومن ثم يتبين لك -أيها القارئ الكريم- خطأ من زعم أن خروجه ﷺ لملاقاة قريش كان بقصد الانتقام منها على ما صنعته قبل الهجرة. فإن قيل: لِمَ خرج ﷺ لملاقاة عير قريش وهي تحمل تجارتها وفيهـا أموالهم في غزوة بدر؟ نقـول إن الهدف من خروجه للقبائل حول المدينة هو إظهار قوة المسـلمين وإبرام عهود الموادعة مع القبائل المسـالمة وليس الترصد لتجارة قريش. (المجلة)

في زمانه ذلك، قال السهيلي: وكانت نسخة الموادعة فيما ذكر غير ابن إسحاق: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله ما بَلَّ بحرٌ صوفة، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله ولهم النصر على من بر منهم واتقى».

تحقيق الاختلاف فيمن وادع النبي ﷺ عن بني ضمرة:

وفي فتح الباري: أن الذي وادع النبي ﷺ عنهم رئيسهم مجديّ بن عمرو الضمري، ولم أقع على ذكر مجدي فيما وصلت إليه إلا في بيت شعر في قصيدة منسوبة لأبي جهل، وهذا البيت هو كما جاء في سيرة ابن إسحاق.

فورَّعني مجدي عنهم وصحبتي

وقد وازروني بالسيوف وبالنبل

قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذا الشعر لأبي جهل وقد تكلم السهيلي على لفظ(مجدي) في الشعر المنسوب إلى أبي جهل فقال: وقول أبي جهل: وورّعني مجدي عنهم وصحبتي، وترك صرف مجدي لأنه علم، وترك التنوين في المعارف كلها أصل، لا ينون مضمر ولا مبهم، ولا ما فيه الألف واللام ولا مضاف، فكذلك كان القياس في العلم، فإذا لم يُنَوّن في الشعر فهو الأصل فيه، لأن دخول التنوين في الأسماء إنما

هـو علامـة لانفصالها عـن الإضافة، فمـا لا يضـاف لا يحتاج إلى تنوين، ثم قال السـهيلي: وقد كشفنا سر التنوين وامتناع التنوين والخفـض مما لا ينصرف في مسـألة أفردناها في هذا الباب وأتينا فيها بالعجب العجاب.

غير أن ابن سـعد في الطبقات ذكـر مجدي بن عمرو الجهني، وليـس الضمري، كما في الفتح، وذكره ابن سـعد في بعث حمزة بـن عبد المطلب -رضـي الله عنه-، فقال: وخـرج حمزة يعترض عيـرا لقريش قد جاءت من الشـام تريد مكة، وفيهـا أبو جهل بن هشـام في ثلاث مئة رجل، فبلغوا سـيف البحر من ناحية العيص، فالتقـوا حتـى اصطفوا للقتـال، فمشـى بينهم مجـدي بن عمرو الجهني، وكان حليفًا للفريقين جميعًا، إلى هؤلاء مرة وإلى هؤلاء مرة، حتى حجز بينهم، ولم يقتتلوا.

وقد ذكر ابن سـعد مخشي بن عمرو الضمري في غزوة الأبواء وهـي ودّان، فقـال: وفي هذه الغـزوة وادع -أي رسـول الله ﷺ- مخشـيَّ بن عمرو الضمري وكان سـيدهم في زمانه، على ألا يغزو بنـي ضمرة ولا يغـزوه، ولا يكثرَّوا عليه جمعًـا ولا يعينوا عدوًا، وكتب بينه وبينهم كتابًا.

ومسلك ابن سعد أرجح، لأن مجدي جهني، ومخشيًا ضمْري، يؤيد ترجيحنا ما ذكره الزرقاني في شـرح المواهب من أن مجدي بـن عمرو الجهنـي إنما حجز بين سـرية حمزة بـن عبد المطلب -رضـي الله عنـه- وبين قافلة أبي جهل وسـرية حمـزة كانت بعد

ودّان بقليـل، وقد ذكر ابن حجر في فتح الباري مجديَّ بن عمرو في سرية حمزة بن عبد المَّطلب، ولم يذكر مخشي بن عمرو الضمري، لا في ودّان ولا في غيرها، وهذا مخالف لما يشبه الاتفاق على ذكره في ودّان، وأنه هو الذي وادع النبي ﷺ عن قومه بني ضمرة، وكتب ﷺ لهم بهذه الموادعة كتابًا كما قدمناه عن السهيلي، وكما ذكر بعض فِقَره ابن سعد في الطبقات، فلعلّ في نسخة الفتح غلطًا مطبعيًا في ذكر مجدي في غزوة ودّان، أو نقول في الاعتذار عن الحافظ ابن حجر: جلّ من لا يسهو.

وقد ذكر البخاري في الصحيح هذه الغزوة ـ وهي أولى غزوات النبي ﷺ ـ باسم (الأبواء) نقلًا عن ابن إسحاق، فقال تحت ترجمة كتاب المغازي باب غزوة العشيرة، أو العسيرة ـ قال ابن إسحاق: أول ما غزا النبي ﷺ (الأبواء) ثم (بواط) ثم (العُشَيرة).

وابن إسحاق ذكر هذه الغزوة في سيرته باسم (ودّان) وقال: إنها غزوة (الأبواء)، فظّن ابن حجر أنه قد يتوهم أن بين ما نقله البخاري عن ابن إسحاق، وبين ما وقع في سيرة ابن إسحاق اختلافًا، فقال في رفع هذا التوهم -الذي لا وجود له-: ليس بين ما وقع في السيرة، وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحاق اختلاف، لأن (الأبواء) و(ودّان) مكانان متقاربان، بينهما ستة أميال أو ثمانية، ثم قال ابن حجر بعد ذكره ما وقع في حديث الصّعْب بن جثّامة: وهو بالأبواء أو بودان: ووقع في مغازي الأموي: حدثني أبي عن ابن إسحاق، قال: خرج النبي ﷺ غازيًا بنفسه حتى انتهى إلى ودّان، وهي الأبواء.

وكان يكفي الحافظ ابن حجر أن يسوق في دفع توهّم الاختلاف بين ما وقع في سيرة ابن إسحاق، وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحاق عبارته في السيرة فهي واضحة الصراحة في إفادة أن الأبواء وودّان غزوة واحدة ولا دخل لقرب المكانين، ولا وجه لسَوْق عبارة الأموي في مغازيه، عن أبيه، عن ابن إسحاق، وإطراح أصلها في سيرة ابن إسحاق، وقد أوضح ابن هشام في تهذيبه سيرة ابن إسحاق، وهو الكتاب المتداول بين العلماء من السيرة فقال: غزوة ودّان، وهي أول غزواته -عليه السلام-، ثم يقول ابن هشام تحت هذا العنوان: قال ابن إسحاق: حتى بلغ ودّان، وهي غزوة الأبواء، قال ابن إسحاق ثم غزا -أي رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول، يريد قريشًا أيضًا -أي عيرها- حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدًا.

وقد أوجز ابن إسحاق الكلام جدًا في غزوة (بواط) إيجازًا ضامها[٢]، وأخلّ بما كان فيها من أحداث وإعداد، وسياق ابن سعد لها في طبقاته أفيح عرضًا، وأروَى غُلّة، وأفيد معنى، قال: ثم غزوة رسول الله ﷺ (بواط) في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهرًا من مهاجره، وحمل لواءه سعد بن أبي وقاص - وكان لواءً أبيض- واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وخرج في مئتين من أصحابه، يعترض عير قريش، فيها أمية بن خلف الجمحي ومئة رجل من قريش، وألفان وخمس مئة بعير، فبلغ(بواط) وهي جبال

(٢) من الضيم وهو الظلم والإضرار. (المجلة)

مــن جبال جهينة من ناحية رضَوْى وهي قريب من ذي خشــب مما يلي طريق الشــام، وبين (بواط) والمدينة نحوا من أربعة بُرُد، فلم يلق رسول الله ﷺ كيدًا فرجع إلى المدينة.

تحقيق القول في غزوة العشـيرة وما وقـع فيها من حوادث وموادعة:

ثــم كانــت غزوة (العُشَــيرة) وهــذا -الضبط- هــو المقدم في ترجمــة البخــاري لها فــي صحيحه، وهو قــول قتــادة، وجعله ابن حجــر مما لا اختلاف فيه عنــد أهل المغازي، فقــال في (الفتح): وأما العشــيرة فلم يختلف أهل المغازي أنهــا بالمعجمة والتصغير وآخرها هاء، وقد ســماها ابن سعد في الطبقات -وهو من أئمة أهل المغــازي- (ذا العشــيرة) وقد كثر الخلاف فــي ضبطها وهو قليل الفائدة.

خرج إليها رســول الله ﷺ في جمادى الأولى[من السنة الثانية للهجــرة]، وهو قول ابن إســحاق وابن حزم وغيرهمــا، وقيل في جمادى الآخرة، وإليه ذهب ابن ســعد، على رأس ســتة عشر شهرًا من مهاجره في مئة وخمسين رجلًا، وقيل في مئتين، وحمل اللواء فيهــا حمزة بن عبد المطلب يريد عير قريش وهي صادرة من مكة إلــى الشــام بالتجــارة، وكانت أعظم عيــر لقريــش، جمعت فيها أموالهــا، التي بلغت نحو خمســين ألف دينــار وألف بعير، فخرج إليها رسول الله ﷺ ليغنمها، فوجدها قد مضت قبل خروجه إليها

بأيام، وهذه العير هي العير التي خرج إليها حين رجعت من الشام، فكانت بسببها وقعة بدر الكبرى.

قال ابن إسحاق ونقله عنه ابن كثير: فسلك ﷺ على نقب بني دينار، ثم على فيفاء الخيار، فنزل تحت شجرة في بطحاء ابن أزهر، يقال لها ذات الساق، فصلّى عندها، فثَمّ مسجده، فصُنع له طعام عندها، فأكل منه، وأكل معه الناس، فرسوم أثافّي البرمة معلوم هناك، واستسقي له من ماء يقال له (المشيرب) ثم ارتحل، وفي هذه الغزوة وادع ﷺ بني مدلج وحلفاءهم من بني ضَمْرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا.

وهذه الموادعة التي كانت في غزوة (العُشيرة) غير الموادعة التي كانت في غزوة (ودّان) وهي التي عاقد فيها على قومه ضمرة مخشي بن عمرو الضمري، وكان سيدهم إذ ذاك، لأن تلك الموادعة التي كانت في (ودّان) كانت مع فريق من بني ضمرة، لم تكن لهم محالفة مع بني مدلج، وهذه التي كانت في (العشيرة) كانت مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة، فموادعة (ودّان) كانت مع قوم من بني ضمرة لم تتكرر معهم موادعة في (العشيرة) وموادعة العشيرة كانت أصلًا مع بني مدلج وانضم إليهم فريق من بني ضمرة كانوا حلفاء لبني مدلج، لم تعقد معهم موادعة في (ودّان).

ولعل هذا التوجيه لتكرر ذكر بني ضمرة في موادعة (ودّان) وهي التي عقدها عنهم رئيسهم مخشيّ بن عمرو الضمري، وفي موادعة (العشيرة) مع حلفائهم بني مدلج أولى من توجيه الزرقاني

في شرح المواهب، من أن موادعة حلفاء بني مدلج من بني ضمرة تأكيد لموادعتهم في (ودّان) ويشير إلى هذه الأوليّة في التوجيه قول الزرقاني في آخر عبارته: أو أن حلفاء بني مدلج كانوا خارجين من بني ضمرة لأمر ما، وبسببه حالفوا بني مدلج، وكان ابتداء صلح لبني مدلج.

وذكر الواقدي أن هذه السفرات الثلاث: (ودّان) وهي الأبواء و(بواط) و(العشيرة) كان يخرج فيها ﷺ لتلقّي تجار قريش حين يمرون إلى الشام ذهابًا وإيابًا(٣).

وتعبير الواقدي عن هذه الغزوات التي خرج فيها النبي ﷺ بنفسه الكريمة بلفظ (السفرات) من أحسن وألطف ما يعبر به عن كل خرجة لم يقصد فيها إلى القتال.

أول ما نزل من القرآن في الإذن بالقتال لدفع العدوان:

وأول آية نزلت في الإذن بالقتال قول الله -تعالى-: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾

(الحج: ٣٩، ٤٠).

قال أبو حيان في (البحر): والمأذون فيه محذوف، أي في القتال، لدلالة يقاتلون عليه، وعلّل للإذن بأنهم ظُلموا، كانوا

(٣) ولنا أن نفهم من عبارة الواقدي هذه أنه ﷺ كان يريد أن يوصل رسالة إلى قريش مفادها أن المسلمين يستطيعون أن يهددوا مصالحها لتكف عن عدوانها وتآمرها. (المجلة)

يأتــون رســول الله ﷺ من بين مشــجوج ومضــروب، فيقول لهم: «اصبروا، فإني لم أومر بالقتال» حتى هاجر، وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهي عنه في نيّف وسبعين آية، وكون هذه الآية أول آية نزلت في الإذن بالقتال هو قول عائشــة -رضي الله عنها-، كما أخرجه النَّســائي بإِســناد صحيح من طريق الزهــري موقوفًا عليها -رضي الله عنها-.

ويقــول أبو حيان: رُوي أن المؤمنيــن لما كثروا بمكة، وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتــل من أمكنه من الكفار، ويحتال ويغــدر، فنزلت -أي آية المدافعة عــن المؤمنين- وعد الله فيها بالمدافعــة، ونهى عن الخيانة وخص المؤمنيــن بالدفــع عنهم، والنصرة لهم، وعلّــل ذلك بأنه لا يحب أعداءهم الخائنين الله ورسوله، الكافرين نعمه(٤).

ومما ينبغي ملاحظتــه أن الغزوات الثلاث، الأولى التي بدأ بها الجهاد، وخرج فيها النبي ﷺ بنفســه الكريمة ليلقى عير قريش كان جنودهــا كلهــم من المهاجريــن الذين نزلت فيهــم آية الإِذن بالقتــال لدفع العــدوان والظلم، والذين أخرجهم المشــركون من ديارهــم بمكة ظلمًا وعَدْوا، ولم يكن لهــم قط جريرة عند أولئك

---

(٤) يقصــد قولــه -تعالــى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ (الحج: ٣٨). (المجلة)

الطغاة سوى أنهم خلعوا الشرك وآمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا جاءهم بالحق من عند الله فعرفوه واتبعوه.

وكذلك البعوث والسرايا التي عقد ألويتها رسول الله ﷺ لبعض أصحابه لم يُبْعث فيها أحد من الأنصار حتى غزا رسول الله ﷺ بأصحابه من المهاجرين والأنصار بدرًا، بعد أن عرف أنّ قريشًا تجمعت له ولمجتمعه وجاءته بخيلائها وفخرها مشمّرة للقتال بكل ما تملك من عتو وفجور وقوة مادية، ومن ثم كانت وقعة بدر العظمى.

مَشَارق أنوار النّصر
من آفاق بدر
منهج نبوي ومجتمع مسلم

بدر، ما بدر، وما أدراك ما بدر! ! بدر هي الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به الإِسلام والمسلمين، وهي النصر المؤزّر الذي توّج الله به جبين نبيَّه محمد ﷺ ليمسح بمناديل لطفه ومحبته عن جبينه الأطهر المطهَّر لآلئ العرق التي طالما تندَّى بها هذا الجبين الأزهر، لتزيِّن وجهه الأنور بحلى الكفاح النضالي في سبيل أسمى غاية عرفها الوجود، وأرفع مقصد مشى إليه أسعد وأشرف موجود، ذلك هو إعلاء كلمة الله، وتبليغ أعظم رسالة تنزّل بها وحي السماء على أكمل نبي، وأشرف رسول.

يوم بدر هو يوم الفرقان الأعظم، يوم التقى الجمعان: جمع المجتمع المسلم -في رسوخ يقينه، وقوة إيمانه، وسواء وحدته مع قلة عدده، وضآلة عُدَّته المادية القتالية- وجمع الفجور الظلوم، والكفر الغشوم، في غروره وكثرة عدده ووفرة عُدته المادية القتالية، التقيا على غير ميعاد سوى ما خطّه قلم القدر في لوح الغيب بمداد السر الأعظم والنصر الأعصم لمجتمع القلة المسلمة على مجتمع الكثرة الكافرة.

يوم بدر هو يوم الفيصل بين حياة وحياة في تاريخ البشرية منذ عرف هذا التاريخ الحياة، ومنذ أن عرفته الحياة، يوم علت فيه كلمة الله -وهي العليا- وتسفلت فيه كلمة الكفر -وهي السفلى-

يوم فتح الله به للحق وأهله أبواب الكرامة والعزة، فكرُم الحق على أهله وعزّ، وكرموا به وعزّوا، وفتح الله به للباطل وأهله سراديب الهاوية فاندحر واندحروا، وارتفع الحق شامخًا، وتسامى إلى الآفاق مضيئًا مشرقًا، واندحر الباطل منكوسًا منحوسًا يهوي إلى وادي الفناء ذليلًا محسورًا.

يوم بدر، يوم وقفت فيه عجلة حياة مرذولة خبيثة، وتحركت فيه مسيرة حياة إنسانية فاضلة كريمة تحمل إلى الدنيا إيمانًا وهدى، وعدلًا ومحبة وإخاء متواسيًا.

يوم بدر، يوم ارتدت فيه على أعقابها حياة ضالة مضلة، فاسدة مفسدة، شرِّيرة فاجرة، لم يكن للحق والخير فيها وجود على الأرض، بل كان الباطل والشر بأفانينهما يملآن أفنيتها، والظلم الطاغي يغطِّي بظلماته الحالكة آفاقها، والشرك في أحطِّ صوره، وألأم أشكاله، وأقبح مناظره دينها ومتعبدها، وكانت الوثنية الفَجُور متقلّبها ومثواها، والدّعارة العارمة في تسفُّلها مراحها ومغداها، وسفك الدماء البشرية ورْدَها لري ظمئها، وقبائح السلوك في منتدياتها هزج ترنيماتها، وصب البلايا والمحن على المعتصمين بالحق والخير مشارق آفاقها ومطالع أيامها، والتدسيس المتلصص سُرى لياليها، والفوضى الاجتماعية شريعتها، وبخع القوي للضعيف دستورها، والنهب والسلب والاغتصاب للأموال والأعراض والنفوس قانونها وديدنها.

ليس فيها من يأمن على نفسه وحياته إلا من كان سيفه ضجيعه في خدر بيته، فهي حياة ممسوحة التفكير بائرة التدبير، فاقدة

عواصــم التعقل، لا تعرف علمًا إلا مــا يعرف الجهول من الجهل، ولا تحــسّ أمنًا إلا ما يحســه المفزَّع المروَّع وقــد فاجأته الكارثة، ولا تذوق طعم الاســتقرار إلا كما يذوق مــرارة الحنظل الصديان، يتوهمه الماء.

مُنــى هائمة في متاهــات لا حدود لها، نهارهــا إغارات ونهب، وليلها غطيــط منكر في أحلام الفجور، وصحوهــا جريرة ونومها مأرزة، أناسـيّها أشباح في تقويم بشري، هي صورة الرد إلى أسفل سافلين.

معالم الحياة قبل بدر:

هذه هي معالم الحياة التي كانت تعيشــها الأرض بمن فيها وما فيهــا قبل أن يبزغ في أفقها بَدْرُ يوم بــدر، وقد كانت لمعات النور التــي تظهر هنــا وهناك على ألســنة المصطفين من رســل الله بؤرًا من الإشــعاع الذي يحاول أن يبدِّد الظــلام المتكاثف على الأرض، فتصحو على إشراقات ضوئه الأحياء صحوة المدنف المخمور[٥]، لا يكاد يهمّ ناهضًا حتى يقعده ثقل تكاثف الحوالك من حوله.

وما ظنُّك بحياة لبث فيها أول المصطفين لرسالات الله وهديها ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعو فيها قومه للهدى ودين الحق ليلًا ونهارًا، ســرًا وإعلانًا -وقومه هم أشباح البشــرية في دنيا الناس- فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا، وكانت النهاية ما ســجله الله في القرآن

(٥) الدنف: المريض.

الحكيم، إعلامًا لنا بما كانت عليه الحياة فقال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠).

لم يغب عنا أنه كانت هناك لمعات من التفكير الإنساني مرت بها الحياة في صور متفلسفة استغلقت أرتجتها[٦]، فكانت حبسًا على عقول أصحابها، وكانت وبالًا على عقول العامة الذين لم يعرفوا منها إلا جمجمة خرساء، لم تُقِم من أود الحياة شيئًا مما اعوج منها، ومرت الحياة على عوجها تكبو وتكبو فتنيمها الكبوة أجيالًا طوالًا في نوم عميق، وتوقظها لوامع الرسالات الإلهية بهديها فتهمّ من كبوتها ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦).

حتى إذا استوت قائمات العقول على سوقها، ونهضت الأفكار من قماطات معادها[٧] جاءتها رسالة (البعث) من رقدة الجهالة المميتة لتبعث فيها روح الحيوية المدركة لنواميس الهداية الإلهية.

ومن ثَمّ كان ميلاد الحياة الجديدة في صورتها المشرقة بالهداية والخير، وخرجت إلى الناس تحبو على رمال مكة، وهي تحمل إليها وإلى الكون كله رسالة النور والخلود، بما فيها من معالم الإيمان بالله إلها واحدًا، وخلع جلابيب الوثنيات والشرك بجميع صورها وأشكالها، وإخلاص العبادة لله وحده، فأبت مكة بلسان

(٦) الرتاج: الباب. واستغلقت أرتجةُ كذا، أي انغلقت أبوابها.
(٧) القِماط: الخرقة العريضة تلف على الوليد لضم أعضاء جسمه.

طواغيــت ملئها من فجار الوثنية أن تســتضيف هــذا الخير والنور والهدى في بطحائها، لأن طواغيت ملئها كانوا هم الوريث الأكبر لتراث الوثنيــة الجاهليّة الجاهلة، وهــذه الجاهليّة الجاهلة كانت هي الشــهادة التي لا ترّد أمام ســدّة قضاء الشــرك الغبــيّ والفجور الوثنــي العتي، فنهضوا يدفعون عن هذا التراث الوثني الملحد في طغيان فاجر، واستكبار عنيد.

واقترفــوا مــع طلائع الإيمــان كلَّ ما ســوله لهم الشــيطان من فــوادح البلاء، فصبر المؤمنون على قســوة البلاء، واحتســبوا في سبيل إيمانهم رضاء الله -تعالى-، حتى إذا يئس الفجّار من أن ينال البلاء والتعذيب من قوة إيمان أولئك الصفوة من طلائع الســابقين أخرجوهــم مــن ديارهــم وأموالهم بغير ذنــب أو جريــرة اقترفوها ســوى أنهم أبوا أن يكونوا أحمرة وثنية يعيشــون في حمأة الشرك الكفور، فهاجروا إلى المدينة المنورة تاركين وراء ظهورهم السبد واللبــد(٨)، وهناك في المدينــة وجّههم إلى المؤاخــاة الفردية مع إخوانهــم الأنصــار، مؤاخــاة قامــت دعائمها على الحــب في الله، والحب لله، ذلك الحب الذي ســما وتســامى فكان إيثارًا لم تعرف البشــرية له مثيلًا في علاقات الأفــراد والجماعات، ثم عقد بينهم مجتمعيــن ومن تبعهم فــي الإيمان ولحق بهم فــي الهجرة مؤاخاة التكافل الاجتماعي التي جعلت عناصر رَكَّب منها رســول الله ﷺ

(٨) الســبد واللبد: الشــعر والصوف، يقال ما له سبد ولا لبد، أي: ما عنده مال؛ لأن معظم الأموال من الإبل والغنــم.

مجتمعه المسـلم تركيبًا اجتماعيًا تكافليًا كان هو القوة الوحيدة للمجتمع المسلم في مواجهة المجتمعات الضالّة المعادية له.

المجتمع المسلم بعد الهجرة وعقد المؤاخاة التكافلية:

ونهض رسول الله ﷺ بعد أن وثّق وشائج مجتمعه المسلم على أساس المؤاخاة التكافلية التي أمر بتسجيلها في كتاب كان دستور هذه المؤاخاة، ليقف بمجتمعه المسلم المتآخي في وجه طواغيت الشـرك وفجّار الوثنية أينما كانوا ليردهم عن فجورهم وطغيانهم، ويدخلهـم فـي حظيرة الإيمـان توحيـدًا للإنسـانية بالإيمان كما وحَّدها الله -تعالى- في نشـأتها الرّحمية، وبدأ ﷺ بالذين عالنوه الحـرب، وألَّبـوا علـى مجتمعـه المسـلم وجّمعوا لـه الجموع، وحرضوا على حربه من يداخله بالمساكنة في بلده، وهم[طوائف من] اليهود [حول المدينة كانوا] أهل الغدر وخيانة العهود، ومن ورائهم ربائبهم المنافقون.

وكان مـلأ طواغيـت مكة بقيادة فاسـقهم أبي جهل بن هشـام وأمثاله يخرجون في عيراتهم وقوافلهم تجارا إلى الشام مارِّين على المدينة المنورة، عاصمة المجتمع المسـلم ومسـتقر رسـول الله ﷺ فـي تحدٍّ وصَلَف وغرور، لا يقيمون لحرم المجتمع المسـلم في بلده وزنًا، ولا يبالون أن يدوسـوا حرمـة مدينته بمرور عيرهم وقوافل تجاراتهم على طريقها وهم آمنون(٩).

---

(٩) العير: الإبل.

ولكـن المجتمع المسـلم بقيادة النبي ﷺ نهـض إليهم منذرًا معـذرًا، معلنًـا عن وجـوده فـي حياته الجديـدة وقوتـه الموحدة ليشعرهم أنهم أمام قوة جديدة، لم يكونوا يرونها بالأمس في مكة وهم يصبون البلاء والتعذيب على طلائع السـابقين من المؤمنين، ولُيعْلمُوهم أن ما كان بالأمس في القرية الظالم أهلها قد مضى ولن يعود، وأنهم سيكال لهم بكيلهم الصاع آصعًا، والضربة ضربات، والطعنة طعنات.

ونهض رسـول الله ﷺ يترصد تجارتهم، ويعرض لعيرهم وهي قادمة من مكة في طريقها إلى الشـام، وندب معه في هذا النهوض بعـض أصحابه من المهاجريـن خاصة، ليمنعهم مـن المرور على مدينتـه في طريـق ذهابهم وإيابهم، وليسـترد منهم مـا نهبوه من أمـوال أصحابـه فـي مكة بالقـوة والقهـر، وليغنم مـا جمعوه في تجاراتهـم إضعافًا لشـوكتهم، وردعًا لغرورهـم، وإرغامًا لأنفتهم واسـتكبارهم[١٠]، وليـردّ عمليًا على ما صنعوه مع صاحبه سـيد الأنصار سـعد بن معاذ من منعه الطواف بالبيت وقد ذهب ليعتمر بُعَيد مقدم رسـول الله ﷺ المدينة، فرآه الفاسـق أبو جهل يمشـى مع أمية بن خلف -وكان أمية صديقًا لسـعد- فهدّده الفاسـق بعد أن سـأل عنه أمية فعرّفه به، وقال له: لولا أنك مع أبي صفوان لما

(١٠) سـبق أن بيّنا أنّ الهدف من خروجه ﷺ للقبائل حول المدينة هو إظهار قوة المسـلمين لرد عدوان المعتديـن، وإبرام عهود الموادعة من المسـالمين، وليس الترصد لتجارة قريش أو الانتقام منها على ما صنعته قبل الهجرة. فتنبه!

رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد في جهارة القوة التي لا تعرف الخنوع: لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك منه، طريقك إلى متجرك.

وإنما استصفى رسول الله ﷺ في الخروج معه في غزواته الثلاث الأولى بعض المهاجرين خاصة، لأن المهاجرين هم الذين كانوا موضع اضطهاد الظالمين في مكة، وكانوا هم المنهوبة أموالهم، المخرجين من ديارهم. وهذه المناوشات كانت لا تتطلب استيعاب المجتمع المسلم، ولكنها كانت أشفى لقلوب المظلومين من الظالمين، وأزأر لهم على ملاقاتهم فيما ينتظرهم من وقائع فاصلة في مستقبل سير الدعوة وتبليغ الرسالة.

حتى إذا ركب طواغيت ملأ قريش صهوات الشياطين، وتجمعوا وجمعوا فأوعبوا لمحاربة المجتمع المسلم في حرب استئصال لا هوادة فيها، في إثر غزوة (العُشَيرة) بقيادة فاسقهم غميز الرجولية، لعين السماء والأرض أبي جهل بن هشام، أعدى أعداء المجتمع المسلم وأحقد الحاقدين على رسول النور والهدى محمد ﷺ.

وغزوة (العُشَيرة) كانت أكبر الَخرْجات الُمسْلِمة التمهيدية لملاقاة عير قريش وقافلة تجارتهم وهي غادية رائحة، ذاهبة من مكة وآيبة إليها من الشام، مارِّين بطريق المدينة المنورة، مستقر المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، وهذه الغزوة كانت الشرارة الأولى في إشعال نار الحرب في (بدر) العظمى، وكانت (العُشَيرة) -كما يقول صاحب عيون الأثر نقلًا عن ابن

اسحاق- في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة، لكن صاحب (العيون) يقول: إن ابن سعد يخالف ابن إسحاق فيذكر أنها كانت في شهر جمادى الآخرة، على رأس ستة عشر شهرًا من الهجرة، وهذا خلاف مقارب، لاحتمال أنها بدأت في آخر جمادى الأولى، ودخلت في جمادى الآخرة، فأخذ ابن إسحاق بمبدئها، وأخذ ابن سعد بنهايتها، غير أن عبارة ابن سعد أدق في التحديد من عبارة ابن إسحاق، وكان لواء هذه الغزوة في يد أسد الله وأسد رسوله، سيّد فتيان قريش حمزة بن عبد المطّلب، وكان عدد جنودها خمسين ومئة جندي من أبطال الإسلام السابقين الأولين، وقيل كانوا مئتين، وسائرهم من قريش من المهاجرين، ولم يُكره رسولُ الله ﷺ أحدًا على الخروج فيها، بل ندب المهاجرين للخروج إليها فانتدبوا، وكانوا على ثلاثين بعير يعتقبونها.

وكان الخروج إليها لملاقاة عير قريش وهي قادمة من مكة صاعدة إلى الشام، إذ جاءه ﷺ الخبر بقدومها، وفيها أموال قريش ممزوجة بدماء المسلمين وأموالهم التي نهبها طغاة قريش منهم بمكة، فوجد ﷺ هذه العير قد مضت قبل ذلك بأيام، وهذه العير هي التي خرج ﷺ إليها وهي عائدة من الشام بمن كان معه من المهاجرين، فكانت بسببها وقعة (بدر) الكبرى التي نصر الله فيها المجتمع المسلم نصرًا تردَّدت أصداؤه في آفاق الجزيرة العربية كلِّها، وأُدخل الرعب في كل قلب كانت تملؤه الوثنية ويستحوذ عليه الشرك.

وكان قائد عير قريش أبا سفيان بن حرب، وقد أتى رسول الله ﷺ الخبرُ بعودة هذه العير محملة بالأموال من الشام، فقال لأصحابه: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها»(١١) فخرج من خرج معه على غير أهبة للقتال، وثقل عن الخروج كثير منهم، لأنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله ﷺ يلقى قتالًا في خَرْجته هذه كما لم يلق كيدًا في خرجاته التي سبقها.

هدف الخروج إزالة العوائق من طريق الدعوة:

وفي هذا الموقف من المجتمع المسلم دلالة واضحة على أن هذا المجتمع الذي كان طليعة لتربية المنهج النبوي، لم يكن يستهدف المال والثراء من وراء جهاده، ولكنه كان يعمل جاهدًا على إزالة المعوّقات من طريق مسيرة الرسالة ليفتح الطريق أمام نشر نورها.

فإذا أغنت هذه التعرضات المحذِّرة في رد غرور الطغاة من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، وأرغمت معاطسهم، وأصبح الطريق ممَّهدًا أمام سير الدعوة وتبليغ الرسالة لم تكن هناك حاجة للقتال.

(١١) سيرة ابن هشام ج٢ ص ١٨٢ . ولا يخفى أن هذا الخبر نظرا، لمعارضته المنهج الذي التزمه الرسول ﷺ وهو الدعوة إلى الله وعدم اليأس من إسلام قريش وليس أن ينفل أو يغنم شيئًا من أموالها. (المجلة)

أما إذا لم تُغْنِ النُّذُر المحذِّرة في هذه التعرّضات التي تستهدف إشعار القيادة المشركة بقوة المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديد، في مستقره الأمين، فلا مناص من المواجهة القتالية مهما كانت كثرة عدد الطغاة وعدتهم، ومهما كانت قلّة عدد جند المجتمع المسلم وعدته المادية، لأن هذا المجتمع إنما يقاتل إذا قوتل دفاعًا عن كيانه وإعلاءً لكلمة الله، إيمانًا بموعود الله وهو حينئذ لا يبالي -إذا خاض غمرات الحرب في سبيل مقصده وغايته من نشر دعوته، دعوة التوحيد والهدى والعدل والإخاء المتواسي- أكان النصر له في قتاله أم كانت الشهادة طريقه إلى النعيم المقيم في جنات الخلد.

ومن ثَمَّ كان رسول الله ﷺ هو القائد لجنوده في هذه الخرجة ليلًا في عير قريش وهي آيبة من الشام محمّلة بأرباح تجاراتهم، ليستنقذ من أيدي الطغاة ما نهبوه من أموال المهاجرين وما غصبوه [من] دورهم بمكة.

وخرج رسول الله ﷺ بمن خفَّ معه للخروج من المهاجرين والأنصار، وقد كانت هذه العير أعظم عيرات قريش، فكان فيها ألف بعير تحمل الأموال التي قدَّروا قيمتها بثلاثين ألفًا، وقيل بخمسين آلفًا.

وقائد هذه العير أبو سفيان بن حرب كان رجلًا داهية حذرًا، لا يغيب عن دهائه أن طريقه على المدينة المنّورة مستقر المجتمع المسلم مليء بالأشواك والأكمان والترصّدات المتعرضة لعيره.

وهـو قد عرف مـا كان قبل عيره من تعرض المجتمع المسلم لقوافل كانت سبقته ولم تكن في عظم وحجم قافلته، فجعل كلما ازداد قربًا من الحجاز ازداد خوفه فيتجسس الحركات ويتنطّس الأخبار ممن يلقَى من الركبان، خوفًا على ما تحت إمرته وحمايته من أموال قريش، حتى أصاب خبرًا من بعض من لقي من الركبان أن محمدًا ﷺ قد استنفر أصحابه لعيره، فعدل عن طريقه، وساحل بقافلته لينجو، وكان قد أرسل إلى قريش يستنفرهم لحماية أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا ﷺ عرض لها في أصحابه.

وكان رسول أبي سفيان إلى قريش يستنفرهم لحماية أموالهم[هو] ضمضم ابن عمرو الغفاري، الذي طار إلى قريش بمكة حتى وصل إلى بطن واد بها فصرخ: يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد ﷺ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث[١٢] فتجهّز الناس سراعًا، وأوعبوا[١٣]، فكانوا بين رجلين، إما خارج بنفسه في النفير، متأهبًا للحرب أتمّ أهبة، وإما باعث مكانه رجلًا، ولم يتخلَّف من أشراف قريش وطغاتها وقادتها ورءوسها أحد إلا أبا

(١٢) ذهب أحد الباحثين إلى أن أبا سفيان قد رسم ونفذ خطة من شقين شق منها إرسال هذا الرسول بهذه الرسالة لقريش، والشق الثاني هو سيره بالقافلة في طريق بعيد عن المدينة، وهدفه أن تخرج قريش لقتال محمد مدفوعة بخبر غير صحيح. ولعله الصواب.

(١٣) أوعبوا: أي: يجهزوا جميعًا. أوعب واستوعب تدل على الشمول.

لهب الذي استأجر العاص بن هشام بن المغيرة أخا أبي جهل بأربعة آلاف درهم، كانت دينًا له عليه، أفلس له بها، وهكذا خرجت قريش على أتم أهبتها وقوة فجور كفرها وعتوّ شركها ووثنيتها وغرور قادتها، لا تريد إنجاء اللطيمة واستنقاذ أموالها، ولكنها خرجت على الصَّعْب والذَّلول تريد محمدًا ﷺ ومجتمعه في المدينة في لقاء ساعة تقضي فيها على هذا المجتمع المسلم الذي أشجاها غيظًا، وأغصّها حقدًا، وشوى أكبادها، لتقضي على دعوته التي قوَّضت شوامخ شركها ووثنيتها، وراح يتعرض لتجارتها ليذيقها مرارة الفقر والمذلة، ولتوقف هذا التيار الجارف لهذه الرسالة المصلحة التي جاء بها محمد ﷺ هدى ونورًا، ليتحقق الإخاء الإنساني والعدل الاجتماعي المساوي بين بلال الحبشي وسيد البطحاء أبي سفيان بن حرب، بل المواسي كل مسلم بما يملك كل مسلم.

تلك الرسالة التي خرجت من القرية الظالم أهلها لتنشر لواءها خفّاقًا على آفاق الأرض، ولتسمع صوتها كل أذن في كل حي وقبيلة من أحياء وقبائل الجزيرة العربية بعد أن كانت حبيسة الطغيان والظلم المستكبر في الأرض.

خرجت قريش يسوقها الغرور الفاجر في ألف مقاتل مجهّزين بكل ما استطاعوا من عدّة للقتال، معهم المؤن، وأنواع السلاح، ووسائل الترف الداعر من الخمور والمغِّنيات وأدوات العزف والطرب، والمراكب من الخيل المطهّمة والإبل الهادرة، يتنفَّسون

بأوًا وعتوًّا[١٤]، ويتجشئون فجورًا وكفرًا، يقودهم غميز الرجولية الفاسق أبو جهل إلى حتوفهم وهم لا يشعرون.

ولما رأى أمير عيرهم أبو سفيان صخر بن حرب أنه أحرز قافلته ونجا بها حين سَاحَلَ[١٥] وترك طريق السابلة أرسل إلى قريش وراء ضمضم الغفاري الذي أرسله لينهضهم لإدراك عيرهم وهي تحمل أموالهم عائدة من الشام بأرباح تجاراتهم، وكانت مهمة رسوله الثاني إلى قريش أن يقول لهم: إنكم خرجتم متأهبين للحرب دفاعًا عن أموالكم وتجاراتكم، وها هي ذي قد نجاها الله وسلمت لكم، وهي في طريقها إليكم، فارجعوا إلى دياركم مطمئنين[١٦]، ولما وصل هذا الخبر المسالم إلى قريش قام قائم فاسقهم أبي جهل، وقال لهم في تنفج وغرور أحمق واستكبار متغطرس، وفجور حاقد: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا -وكانت بدر موسمًا من أكبر مواسم تجمعات العرب- فنقيم عليه ثلاثًا ننحر الجزر، ونُطْعِم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا.

---

(١٤) البأو: الفخر.

(١٥) سَاحَلَ: صار قريبًا من الساحل.

(١٦) من المستبعد جدًا أن يقوم من أرسل إلى قريش بخبر مختلق ليهجهم على المسلمين؛ بإرسال من يقول لهم إن تجارتكم قد نجت، ولعل قريشًا علمت بنجاة القافلة عن طريق غير أبي سفيان.

وكانت قريش مع فاسـقها كالجمل المخشوش، يقودها بزمام النعرة الفاجرة الحمقاء، فاسـتخفهم فأطاعـوه ومضوا وراءه ذللًا أذلاّء، لا يملكون معه إرادة ولا يستطيعون لقوله ردًّا.

وكان في ملأ طغاة قريش الأخنس بن شـريق بن عمرو الثقفي، وكان حليفًـا لبني زُهْرة، سـاد فيهم وتولى قيادهـم مطاعًا منهم، فقال لبني زهرة: قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلّص لكم صاحبكم -يعني مخرمة بن نوفل الزهري الذي كان في رجالات العير مع أبي سـفيان- وإنما نفرتم لتمنعوه وأموالكم معه، فاجعلوا بي جبنها، وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضَيْعة، لا ما يقول هذا -يعني أبا جهل- في تحريضه قريشًا على الخروج بَطَرًا ورئاء الناس، كما وصفهم الله -تعالى- ناهيًا للمجتمع المسلم أن يكون على طريقتهم في الفجور وضلال العناد فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (الأنفال: ٤٧) فسمع الزهريون للأخنس ورجعوا معه، فلم يشـهد بدرًا مع ملأ الكفر وجنود إبليس زهري، وكانت قريش قد أوعبت في نفيرها لقتال المجتمع المسلم سائر بطونها وبيوتاتهـا، فخرجوا قضهم بقضيضهم إلاّ ما كان من بني عدي، فلم يخرج معهم أحد، وكانوا كبني زهرة، فلم يشـهد بدرًا أحد من الزهريين والعدوِّيين، وهو مشرك كفور.

ومضت قريش في كفرها وصلفها وتغرير فاسقها أبي جهل بها على تعبئة الأهبة للقتال حتى نزلت بالعُدْوة القصوى بين بدر والكثيب إلى جهة مكة مقدمهم، ونزل جند المجتمع المسلم بالعدوة الدنيا، إلى جهة المدينة، وفي هذا نزل قول الله -تعالى- مخاطبًا المؤمنين من جند الإيمان، وأبطال الإسلام بقيادة رسول الله ﷺ مصورًا حالهم وحال فجار الشرك وأحلاس الوثنية بزعامة فاسقهم غميز الرجولية أبي جهل بن هشام: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٢) والمراد بالركب الرجال الذين كانوا يقودون العير بزعامة أبي سفيان، والعُدْوة شط الوادي وشفيره وضفّته، والمدينة من الوادي موضع الوقعة في الشرق منه وبينهما مرحلتان، وفي كشّاف الزمخشري[عند قوله ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾]أن العير كانت وراء ظهر العدو، لتضاعف حميتهم وتزيد من شراستهم في القتال.

ولما نزلت جنود الشيطان من طغاة الكفر بالعُدْوة القصوى في أهبتها وحقدها بعثوا أحد شياطينهم عُمَير بن وهب الجمحي ليحزر لهم جند الله من أبطال المجتمع المسلم، فركب فرسه واستجال حول عسكر المسلمين ثم رجع إلى قريش، فقال لهم: القوم ثلاث مئة، يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أَلِلْقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر

قريش البلايا تحمل المنايـا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قـوم ليـس لهم مَنَعَـةُ ولا ملجأ إلا سـيوفهم، والله مـا أرى أن يقتل منهـم رجل حتى يقتل رجلًا منكم، فإذا اصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فَرُوا رأيكم -أي فكروا فيها تورطتم فيه من مأزق مأزوم.

وكان فـي القوم مـن قريش حكيـم بن حـزام -وكان من أعقل رجالاتهم- فسـمع كلام عمير، وهو يصك به آذان قريش، فتمثل الطامّـة التـي تنزل بقريش إذا هـي ركبت ظهر الشـيطان واتبعت الغـرور الفاجر الذي يمشـى به في الناس محّرضًـا غميزُ الرجولية الفاسق الملعّن أبو جهل، فأتى حكيمُ بن حزام عتبة بن ربيعة، وهو مـن لا يفضله حكيم في عقله الجاهلي، فقال له: يا أبا الوليد إنك كبيـر قريش وسـيدها المطاع فيها، هل لك إلـى أن لا تزال تذكر فيهـا بخيـر إلى آخر الدهر؟ فقـال عتبة: وما ذاك يـا حكيم؟ قال حكيـم: ترجع بالناس، وتحمل ديـة حلفك عمرو بن الحضرمي، قـال عتبة قد فعلت، أنت عليّ بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عَقْله، وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلية -يعني أبا جهل، والحنظلية أمه- فإني لا أخشى أن يسجّر أمر الناس غيره(١٧).

(١٧) شـجر الأمر: وقع فيه خلاف، وأشـجر فلان أمرهـم: أوقعهم في الخلاف، ومنه التشاجر.

ثم قام عتبة خطيبًا في جمهرة الساعين لحتوفهم بأظلافهم من طغاة قريش، فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقَوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم بن حزام: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل دروعًا يهنؤها، فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمدًا وأصحابه[١٨]، فلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما يعنيه -أي عتبه- ما قال، ولكنه رأى محمدًا وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه -أي أبو حذيفة بن عتبة، وكان من سُبّق الإيمان- فقد تخوَّفكم عليه.

ثم بعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي ليشعل ضرام الفتنة ويسعّر نار الحرب، ويفسد على الناس أمرهم، ويقطع الطريق على عتبة في مسعاه إلى السلام، فقال لعامر بن الحضرمي: هذا حليفك -يعني عتبة- يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت

(١٨) يقولون: انتفخ سَحره، أي: امتلأ خوفًا، والسَّحْر: الرئة.

ثـارك بعينك، قم فانشـد خفرتـك ومقتل أخيك، فقـال عامر بن الحضرمي وتكشف عن سوأته، على عادة قبائح الجاهلية ورذائلها ثـم صرخ... واعمراه؟؟ واعمراه؟؟ فحقبت الحرب، وحقب أمر الناس، واستشـرى الشـر، وكشَّـرت الحرب عن أنيابها، وأفسد الفاسـق أبـو جهل على الناس أمرهم وقطـع الطريق على رأى عتبة الذي دعا إليه.

ولمـا بلـغ عتبة قولُ أبي جهـل في الحطِّ من شـأنه والقدح فيه بقوله: انتفخ والله سحره، يرميه بالجبن، قال: سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره، أنا أم هو؟.

وكثيـر من الناس من أهل العلم يرون فـي هذه الكلمة التي أَبَن بهـا عتبة أبـا جهل مصدر غمـز رجولية هذا الفاسـق اللعين، وقد صـرح الزرقاني في شـرح المواهب بما أبن به أبـو جهل من داهية الدواهـي ولـم يكـنَّ، وقد أخذ الله مـن هذا الفاسـق فقتله في هذه الغزوة شر قتله، وبوأه جهنم وبئس المصير.

وأخـرج الطبـري حديث حكيم بـن حزام من طريق سـعيد بن المسـيب، قـال: بينا نحن عند مروان بن الحكـم إذ دخل صاحبه فقال: حكيم بن حزام يسـتأذن؟ فقال مروان: ائذن له، فلما دخل حكيـم تلقّاه مروان مرحبًا، واسـتدناه، فحال عـن صدر المجلس حتـى جلس بينه وبين الوسـادة، ثـم قال له: حدثنـا حديث بدر، فقـال حكيـم: خرجنـا حتـى إذا كنا بالجحفـة رجعـت قبيلة من قبائل قريش بأسـرها -يريد بني زهـرة- رجعوا إطاعة للأخنس بن

شـريق حليفهم- وقائدهم، وكان فيهم مسوَّدًا مطاعًا -فلم يشهد بـدرًا أحد من مشـركيهم، ثـم خرجنا حتى نزلنا العـدوة التي قال الله -تعالـى-: ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ فجئـت عتبـة بن ربيعة، فقلـت: يـا أبا الوليد، هل لك في أن تذهب بشـرف هـذا اليوم ما بقيـت؟ قال عتبة: أفعـل ماذا؟ قلت: إنكـم لا تطلبون من محمد إلا دم ابـن الحضرمي، وهو حليفك، فتحمَّل بديته ويرجع الناس، قـال عتبة: أنت علـيّ بذلك، واذهب إلى ابـن الحنظلية، فقل له: هـل لك أن ترجع اليـوم بمن معك عن ابن عمـك؟ فجئته فإذا هو في جماعة مـن بين يديه ومن خلفه وإذا ابن الحضرمي واقف على رأسـه، وهو يقول: فسـخت عقدي من عبد شـمس وعقدي اليوم إلـى بني مخزوم، قـال حكيم: فقلت لأبي جهـل: يقول لك عتبة بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك؟ قال أبو جهل لحكيم منتقصًا له غامزًا لقناته، أما وجد -أي عتبة- رسولا غيرك؟ قلت: لا، ولـم أكن لأكون رسـولًا لغيره، قـال حكيم، فخرجـت مبادرًا إلـى عتبة لئلا يفوتني من الحديث شـيء، وعتبة متكئ على إيماء بـن رَحْضة الغفاري، فطلع أبو جهل والشـرُّ في وجهه فقال لعتبة: انتفخ سـحرك، فقال له عتبة: ستعلم، وحقب على الناس أمرهم، وفسد تدبيرهم وطلعت عليهم نُذُر الحرب مكفهرة مسعورة.

كذلـك كان شـأن فجـرة الكفـر فـي تفكيرهـم المجنـون، واسـتعدادهم المحمـوم لخـوض حرب غيـر متكافئة فـي موازين القوى المادية بينهم وبين المجتمع المسلم الناشئ.

وكان رسول الله ﷺ قد أحاط علمًا بأمرهم بعد أن فاتته عيرهم التي خرج لملاقاتها ومعه مَنْ نشط للخروج من أصحابه في غير أهبة لقتال، وكانت هذه العير أكبر عيراتهم، وأملأ قوافلهم بالمال والثراء، راجعة من الشام عن طريق المدينة مستقر المجتمع المسلم، ولكن أمير العير أبا سفيان حينما سمع بخروج رسول الله ﷺ لملاقاة العير عدل عن طريق السابلة مساحلًا ليتفادى ما تخّوفه من تعرَّض رسول الله ﷺ لقافلته، وأرسل إلى قريش لتنهض بما في طاقتها من قوة لتحمي أموالها وقد تعرض لها محمد ﷺ في أصحابه، فهبَّت قريش رجالُها وشبابها موعبة لقبائلها بقيادة فاسقها أبي جهل في العدد والعدّة، يكنفها الغرور، ويسوقها الحقد على المجتمع المسلم.

وكانت عير قريش أكثر من ألف بعير يحرسها أربعون رجلًا من أبطال الكفر وفجور الشرك الوثني، وكان فيها خمسون ألف دينار، وكان قائدها ومدبّر حراستها أبو سفيان صخر بن حرب، وهو رجل دهي ماكر، عقول لأمور الدنيا والمال والتجارة، فكان كلما قرب من المدينة ازداد تحسسه وتخوفه على ما تحت يده من مسئولية عن القافلة وما فيها من أموال الناس وثرواتهم، وكان يسأل كل من لقي من السابلة: هل أحسست شيئًا مريبًا أو أحدًا متربصًا، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان، أن محمدًا ﷺ قد استنفر أصحابه لك وللعير معك، فحذر عند ذلك، وأخذ في طريق آخر لينجو بقافلته.

ولكن قريشًا كانت قد استجابت لرسالته المنذرة لهم ليهبّوا لحماية أموالهم، ومنعها الغرورُ واستخفافُ فاسقها بها أن ترجع بعد أن أبلغها أبو سفيان أنه نجا بالقافلة، وساروا وهم يردِّدون: أيظن محمد وأصحابه أن تكون هذه العير كعير ابن الحضرمي؟ والله ليعلمنَّ غير ذلك.

وبعد المعركة علم رسول الله ﷺ وأصحابه بما أخفاه الغيب من حكمة التدبير الإلهي، ورفعت الأغطية من أفاق النصر المؤزر في منازل بدر ومضى فجور الكفر، وغرور العتو، وجبروت الطغيان يسوق المستكبرين في الأرض إلى القليب معفّرة وجوههم بالذلّ والهزيمة بين القتل والأسر، وعاد من عاد من غوغائهم منكّسي الرءوس، مفزّعي القلوب، يكاد يقتلهم الرعب من فرط ما رأوا من الهول في المعركة وما سمع من لم يشهدها من أخبارها، ومن قُتل فيها من أشرافهم الذين لا خير يرجى في بقائهم كما تدل عليه قصة الحيسمان بن عبد الله الخزاعي الذي كان أول من وصل مكة بمصاب قريش، فقالوا له: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه، وأبو البختري بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية: والله إن يعقل هذا -وفي رواية: لن يعقل هذا- فاسألوه عني، فقالوا: ما فعل صفوان ابن أمية؟ فقال: هو ذاك جالسٌ في الحجر، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وفي سيرة موسى بن عقبة قال: لما وصل الخبر إلى أهل مكة وتحققوه قطعت النساء شعورهن، وعُقرت خيول كثيرة ورواحل.

وكان رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا معه في قلة عددهم وعدم أهبتهم للقتال لأنهم لم يخرجوا يريدون قتالًا، قد خرجوا يريدون العير التي كانت فيها أموال طلائع الإسلام التي نهبتها قريش منهم وهم مستضعفون بمكة، والتي تركوها وراءهم يوم أن هاجروا إلى الله ورسوله ﷺ.

وقد سلك رسول الله ﷺ في خروجه بأصحابه من المدينة مارين بالعقيق وذي الحُلَيفة حتى بلغوا سجسج، وهي بئر الروحاء المعروفة اليوم في طريق حاج المدينة، واتجه ذات اليمين يريد (بدرًا) وسار حتى بلغ الصفراء، ومنها بعث بسبس بن عمرو الجهني، وعدي بن أبي الزغباء إلى بدر لتحسس الأخبار عن أبي سفيان وقافلته، فأتياه بالخبر عن قريش وحشودها ومسيرهم ليمنعوا عيرهم ويحملوا أموالهم، ويهاجموا المجتمع المسلم في مستقره ومثواه.

عدم تكافؤ القوتين ماديا عددا وعدة:

والمتأمل في أحداث هذه المواقف التي تمثل قوة فجور الكفر العتي، وعتو الوثنية المادية، وشراسة الشرك الحقود في غروره المتجبر، وتاهبه لحرب ضروس، قد أعدّ لها الطغاة كل عدّة، واتخذوا لها كل أهبة تدخل في دائرة استطاعتهم، وما يملكون

من أموال وأسلحة وعتاد ورجال، ليستأصلوا المجتمع المسلم ويوقفوا تيار دعوته الجارف، الذي سيكتسحهم لو بقي في مسيرته.

وتمثل قوة الخير والإيمان، والحق والنور، والهدى والعدل، والمحبة والإخاء، وصدق العزائم التي لا تهزها قعقعة سلاح الفجور والطغيان الوثني، وهو زاحف في سُعر وسُعار، وجنون مسعور - يرى قوتين لا تكافؤ بينهما في قوة الحرب المادية، بل لا تقارب بينهما في ذلك، فقوة فجور الشرك، وشراسة الوثنية الطاغية خرجت من مكة لحرب تقصدها وقد أعدت لها فأوعبت في العدد والعدة، وقوة الإيمان والهدى، والنور والخير، خرجت من المدينة مسالمة في عدد قليل على غير استعداد وأهبة لقتال؛ لأنها لم تقصد في خرجتها إلى حرب وقتال، ولكنها خرجت محذرة منذرة لأولئك الطغاة المتنفجين بقوتهم المادية في عددها وعدتها، حتى يعلموا أن مستقر المجتمع المسلم لم يكن مكشوف الحصانة، يتواثبون بتجارتهم وقوافلهم وأموالهم على أرضه غادين رائحين، وأن ما سلبوه من أموال طلائع هذا المجتمع المسلم في مكة، لا بد أن يرجع إلى أصحابه(١٩)، وأن طريق المدينة من مكة

(١٩) لم يكن المال سببًا للقتال عند الرسول صلى الله عليه وسلم، بل كان يعطي المال يتألف به الناس، وفي السيرة النبوية لابن كثير: "باب سرية عبدالله بن جحش التي كان سببها لغزوة بدر العظمى"، وعلق المحقق على هذه العبارة بقوله: كذا، ولعلها التي كانت سببًا ٢ / ٣٦٦. (المجلة)

إلى الشـام ومن الشام إلى مكة أصبح محرمًا عليهم إلا أن يؤمنوا بما كرهوا من الحق أو يستسلموا صغارًا وذلة.

فقـوة المجتمع المسـلم خرجـت في عددها القليـل على غير استعداد وتأهب لتعترض عير أبي سفيان التي جمعت أموال الطغاة من سفاحي قريش وفيها أموال المسلمين التي نهبها أولئك الطغاة منهم وهم مستضعفون في مكة، والتي سلبوها منهم ثمنًا للتخلية بينهـم وبين الهجرة إلى إخوانهم الأنصار في مدينتهم التي صارت مسـتقر المجتمع المسلم الجديد، وعاصمة الإسلام وعالمه أينما كان من الوجود في أرض الله.

كان رسول الله ﷺ فوق مستوى القيادة العسكرية والسياسية:

وقـد كان رسـول الله ﷺ فـي قيادتـه لمجتمعه المسـلم فوق مسـتوى القيادة العسكرية والسياسـية، فلم يقحم جنده للهجوم دون خطـة مدروسـة، وهو يعلم قلـة عددهم وضعـف عدتهم أمام ما عسـى أن تكون قريش فـي صلفها وغرورها قـد أعدته من أهبة الحرب في العدد والعدة.

فاتخـذ ﷺ للأمـر كفـاءة مـن التدبيـر المحكم، والسياسـة الحكيمـة، واتجه بفكـره أول ما اتجه إلى أن يتعرف قوة عدوه في عددها وعدتها، فندب عددًا من شـجعان جنده، فيهم عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسـعد بن أبي وقـاص، فانتدبوا للقيام

بمـا كلفوه مـن الذهـاب طليعة إلى (بـدر) يلتمسـون الخبر عن قريـش ولفائفها ، فلمـا وصلوا إلى ماء بدر أصابـوا راوية لقريش ، فيها أسـلم غلام بني الحجاج ، وعريض أبو يسـار غلام بني العاص بـن سـعيد ، فأتوا بهما إلى رسـول الله ﷺ فوجـدوه قائمًا يصلي ، فسـألوهما ليكشفوا ما عسـى أن يكون عندهما من علم عن العير والنفيـر ، فقال الغلامـان : نحن سـقاة بعثتنا قريش نسـقيهم من المـاء ، فكره الصحابة خبرهما عن نفير قريش ، وكانوا يرجون أن يكـون الغلامان لأبي سـفيان أمير العيـر ، وعندهما خبر عنه وعن عيره ، فضربوهما لينتزعوا منهما خبرًا عن العير ، حتى أزلقوهما ، وعندئذ قال الغلامان تفاديًا من الضرب : نحن لأبي سفيان ، وركع رسـول الله ﷺ وسجد سـجدتيه وسـلَّم من صلاته ، ثم التفت إلى أصحابـه ، فقال لهـم : « إذا صدقاكـم ضربتموهمـا ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله إنهما لقريش » .

ثم استخبر رسول الله ﷺ الغلامين عن عدد قريش ، فقال لهما : « أخبراني عن قريش » فقالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ، فقال لهما رسول الله ﷺ : "كم عدد القوم ؟" قالا : كثير ، فقال رسـول الله ﷺ : "ما عدتهم ؟" قـال الغلامان : لا ندري ، فقال رسـول الله ﷺ : "كـم ينحـرون كل يوم ؟" فقـال الغلامـان : يومًا تسـعًا ، ويومًا عشرًا ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : "القوم ما بين

التسع مئة إلى الألف" ثم قال رسول الله ﷺ للغلامين: "فمن فيهم من أشـراف قريش؟" فقال الغلامان: عتبة بن ربيعة، وأخوه شـيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشـام، وحكيـم بن حزام، ونوفل بن خويلـد، والحارث بن عامر بـن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، وهؤلاء هم الملأ من قريش، وهم شياطينها في جاهليتها، وأشرافها في بلدها، وذوو رأيها في أزماتها ومحنها؛ وأفلاذ كبدها، وشرايين حياتها ونبضات قلوبها.

تبشير رسول الله ﷺ أصحابه بالنصر:

وقـد كان رسـول الله ﷺ أعلـم بهـم وبمكانتهم فـي قومهم، فسأل عنهم بعنوان أشـراف قريش، وإنهم لكذلك، ولهذا التفت رسـول الله ﷺ بعد إخبار الغلامين بأسـمائهم إلـى أصحابه، فقال لهم ليثبت أقدامهم، ويزيدهم في معية الله لهم بالنصر، ويبشرهم بحسـن العواقـب، ويذهب عنهم رجز الشـيطان ووساوسـه لقلة عددهم وضعف عدتهم أمام حشـد أعدائهم وكثرة عددهم وتوافر عدتهم المادية من المؤن والسلاح والمراكب: "هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها".

وفـي قولـه ﷺ: "ألقت إليكم" إشـعار لأصحابه بـأن أعداءهم على كثرتهم سـيكونون غنيمـة لهم، وأنهم أشـباح بغير قلوب،

كالشيء التافه الذي يُرمَى به لمهانته على رغم قوتهم المادية عددًا وعـدة، وأن مـا يدرعونه من فجـور الغرور لا يحمـل إلا ما يحمله نزيز القيعان من فقاقيع جوفاء إذا تنفســت ماتت، وفي قوله ﷺ : "أفلاذ كبدها" إشـارة إلى أن هؤلاء الأشـراف أشـبه بحبات الرمل تحت أقدام الدائسـين لا تجمع بينهم وشائج تحزمهم بأحزمة من وحدة الهدف وشرف الغاية.

ولقـد كانـت حالـة أصحـاب رسـول الله ﷺ في قلـة عددهم وضعف عدتهـم موضع عجـب وغرابة عند أعدائهم، فتشـككوا فـي أن يكون وراء هذا العدد القليـل أكمنة متخفية وراء هذه القلة الظاهرة، فأرسلوا داهيتهم عمير بن وهب الجمحي - كما قدمنا - ليحزر لهم أصحـاب محمد ﷺ، ويتعرف حالهم وهل لهم كمين وراء عددهـم الظاهـر القليل؟ هذا العـدد الذي اسـتهتر به غميز الرجولية الفاسـق أبو جهل في محاورته مع حكيم بن حزام إذ بعثه إليـه عتبة بن ربيعة، يطلب إليه أن يرجع بقريش عن ملاقاة محمد ﷺ وأصحابه، فقال الفاسق مستخفًا بجند الله: إنهم أكلة جزور.

وأبـو جهل في حمقـه وتنفجه[٢٠] لا يعـرف إلا ما تبصره عينه الحولاء من الأشباح التي تمشي على الأرض، وهو أجهل من الجهل في معرفتـه بالقوى المعنوية من العزائـم الإيمانية التي تكمن في

(٢٠) التنفج: التكبر.

صــدور الرجال، فلا تظهرها إلا مقابلة المحــن الممحصة لمعادن البطولة، فتحدث بكلمته الفاجرة المعربدة عما رأى ببصره، ولكن داهيتهــم عميرًا جاءهم بما خلــع قلوبهم من بين جوانحهم، فقال لهم: «قد رأيت يا معشــر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح[٢١] يثــرب تحمــل إليكم الموت الناقــع»، وعمير بهــذا القول ينفض لقريــش وقائدها أبي جهل ما في كنانتــه، وهو إذ ذاك كان لا يزال يتمــرغ في حمأة الشــرك وأوحال الوثنية، فوصــف لقومه ما أملاه عليــه دهاؤه وحذره عليهــم أن تفتك بهم ســيوف نواضح يثرب، وأن يذهب أشرافهم طعمة لنيران هؤلاء الأبطال الذين لا منعة لهم إلا ســيوفهم، والذين لن يقتل منهم رجل حتى يكون قد جندل إلى جانبه رجلًا من أشرافهم.

ولــو كان عمير يومئــذ يعرف عن الإيمان وعزائمه شــيئًا لقال لقومــه: لقد رأيــت أصحاب محمــد ﷺ لا منعة لهــم إلا إيمانهم وعزائمهــم وصدق إخلاصهم فــي لقائكم، ولن يقتــل منهم رجل حتى يكون قد قتل عشرة منكم، فإذا أصابوكم إفناء وهوانًا وإذلالًا فما بقاء من بقي من أشباحكم بعد هذا؟

ولقــد كانت هذه الحقيقــة هي التي ملأت قلــوب ذوي التعقل واحتســاب العواقــب مــن أضــرارب عتبــة بــن ربيعــة وحكيم بن حــزام، وكانت هي الحقيقــة الواقعية التي تكشّــف عنها الغيبُ،

---

(٢١) النواضح: الإبل يستقى عليها الماء (المجلة).

فقد استأصلت هذه القلة المؤمنة أشراف قريش في هذه الوقعة، واستذلت من بقي منهم بالأسر ودفع الفداء وهم أذلة صاغرون.

ولقد كان خروج رسول الله ﷺ بمن خرج معه من أصحابه، وكثرتهم من الأنصار يستهدف العير والتعرض لها ليُعلِم قريشًا أن المجتمع المسلم في مستقره بالمدينة لن يتركهم يدوسون طريقه غادين رائحين بتجاراتهم إلى الشام مارين بمدينته، ولم يكن ﷺ يقصد في خروجه إلى قتال ومحاربة، وإنما خرج لدوافع يمليها الشرف والعزة خرج يريد:

أولًا: إنذار أعداء الله وأعداء الحق والخير من أحلاس الوثنية وعبيد الشرك الغبي(٢٢)؛ ليعرفهم أن المجتمع المسلم في مستقره الجديد بالمدينة المنورة قد استوقف مسيرة التاريخ ليملي عليه ما خطه الغيب في لوح القدر من حياة جديدة لهذا المجتمع المسلم، هي حياة العزة والكرامة؛ لأنه في عناصره التركيبية التي بناه عليها رسول الله ﷺ في تربيته السلوكية تربية منهجية يحيا بها ويعلمها للناس في مشارق الأرض ومغاربها ليحيوا بها إنما قام على الوحدة الإيمانية والمؤاخاة التكافلية التي جعلت من هذا المجتمع المسلم قوة روحية عارمة، لا تستطيع أية قوة مادية مهما

---

(٢٢) الحلس: ما ولي البعير تحت الرحل، ويستعار للملازمة، يقال هو حلس كذا: أي لا يُفارقه. (المجلة)

كثر عددها وتوافرت عدتها أن تقف في وجه مسيرتها للدعوة إلى الله وإقامــة موازين العدل والإخاء الإنســاني بين أبناء البشــرية في أقطار الأرض.

وثانيًا: اســترداد ما نهبه الظالمون من فجرة الوثنيين من أموال الطليعة المؤمنة وهم يئنون تحت ســياط التعذيب في رمضاء مكة حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم وذراريهم.

ثالثًــا: كســر حدة الغــرور الفاجر بهذه الأمــوال المنهوبة التي تتكرش بها بطونهم بما فيها من سحت، والتي تذهب بها عيرانهم وقوافلهــم غادية رائحــة وهي ممزوجة بدماء الضعفــى من الفقراء الذين يســتعبدونهم بهذه الأموال، ويذيقونهــم بها ذل الحرمان، واســتكانة الاستســلام من أجل ما يتســاقط من موائد فجورهم من فتات متعفن يتلقطه المســاكين المستضعفون في الأرض ليقيموا به أصلابهم.

ورابعًا: إضعاف شــوكة الشرك وتوهين قوته المادية التي يتعزز بها غطارفته وطغاته، والشــرك بجميع صوره وأشــكاله وألوانه هو البؤرة التي ينبع منها كل فساد وإفساد في الأرض.

آثار الشرك بالله في توجيه الحياة أسوأ توجيه:

ومــن ثــم كانــت حيــاة المشــركين حيــاة ممزقــة متهاوية، لا مقومات لها تعصمها من الانحراف إلى جانب الرذائل الاجتماعية والمفاســد الخلقية؛ لأنهــا حياة مهزوزة، يميلها الهوى النفســي

والرغائب الشهوية التي تستحوذ على حياة الأفراد والأمم والشعوب المشركة، وهي حياة متهالكة أمام انحرافات الإلحاد المادي الذي ينسف العقائد الإيمانية نسفًا، ويجعل من النفس الإنسانية خواء من عناصر الخير، فهي حياة بهيمية متسفلة مخلدة إلى الأرض، تسيطر عليها الغرائز الجامحة، المنطلقة من كل قيد اجتماعي أو خلقي بنزواتها المرذولة، فتدفعها إلى كل فساد يحقق لها المتعة بشهواتها المتهاوية في مهاوي الانطلاق الداعر الملحد المسعور في جموح محموم، بل مأفون مجنون، يحطم كل ما يقف في سبيل نزواته وشهواته.

فهو انطلاق لا يعرف فضيلة تحجزه عن مساوئ الحياة ورذائلها ومفاسدها، وليس للمشرك في داخل نفسه وازع من ضمير يصده عن الخوض في لجج الشرور والمفاسد، وسقطات الأخلاق.

وقد يفلسف أحلاس الشرك وعبيد الإلحاد الوثني المادي هذا الإلحاد ليوهموا بعض ذوي الإدراك المراهق الذي تحكمه غرائز الغرور الأحمق، ويخرجوه للناس فلسفة داعرة في صور من الانحلال الخلقي والإباحية، وقد يصبح تقنينًا في حياة بعض الأمم التي يستحوذها فجور الشرك كما هو ماثل في الوجودية والشيوعية وبقايا غثاء اليهودية الصهيونية، وما تفرع عن هذه النحل المنحلة من روابط الفضيلة.

وفي مجتمعات الشرك (المتحضر) والإلحاد المتعالم عند الأمم والشعوب الوثنية قبائح في حياتها الواقعية من المخازي

السلوكية وأرذل الرذائل الخلقية ما يشهد بأكثر وأقبح من ذلك؛ مما ينادي في آفاق الحياة أن الشرك بالله تعالى في جميع صوره ومشاهده مصدر كل شر وفساد اجتماعي وخلقي يجب على الذين يعرفون الله بوحدانيته واقتداره ومحكم تدبيره أن يجندوا أنفسهم لمقاومته واقتلاع جذوره من أرض الحياة، والقضاء عليه وعلى آثاره السيئة في المجتمع الإنساني أينما كان له وجود في الحياة.

أساس الرسالات الإلهية تطهير الإنسانية من الإلحاد ورجس الشرك:

وأصحاب الرسالات الإلهية من الأنبياء والرسل ووارثي مناهجهم من الدعاة إلى الخير الذين حملوا أمانة الحق الإلهي، وسلائلهم الروحيين مكلفون حماية هذا الحق الإلهي، ورفع لوائه وافتدائه بأغلى ما يملك من نفس ومال وولد، والسير به لتطهير الإنسانية من أرجاس الوثنيات الملحدة في جميع شكولها وألوانها ورسومها أينما كانت من جوانب الحياة؛ لأن هذا التطهير هو لباب رسالاتهم وأساس دعواتهم الإلهية لتحرير الإنسانية المعذبة من ربقة العبودية للغرائز الجامحة، والشهوات الفاجرة، لينطلق العقل الإنساني متحررًا من أغلال (الحضارة) المادية المشركة وفجورها الوثني حتى يخلِّص هذا العقل الذي جعله الله تعالى مناط تفضيل الإنسان على سائر أجناس الحيوان لمعرفة الله تعالى معرفة تفتح له أبواب الهداية واستقامة السلوك، وتنير له جوانب

الروح لتشرف من عليائها على تأملاته في الكون ليستخرج من أسراره آيات الله وعجائبه المسخرة للإنسان، حتى يستطيع أن يزاوج بين العلم المادي الذي جعله الله تعالى آيات من آيات فضله ليكشف به عن مظاهر الطبيعة التي أودعها الله في عناصر الكون، ليتسنى للإنسان أن يحقق معنى التسخير الإلهي لهذه العناصر الكونية ليصل منها -أولًا- إلى اقتدار الله وحكمته، وما أودعه في الكون من منافع للإنسان، يفيد منها في حياته المادية والروحية ويزاوج بين إشراقات الروح وتنور القلوب بنور الإيمان وبين العلم المادي، المكنون في عناصر الطبيعة.

وبهذا التزاوج بين العلم المادي والإشراق الروحاني يجعل الإنسان من العلوم الكونية دعائم حضارة مؤمنة، لا تستهويها الرغائب الشهوية في حب التدمير والتخريب والفجور الخلقي في السلوك الاجتماعي من كل ما أصبح يهدد الإنسانية بالدمار الذي لا تقوم لها بعده قائمة.

بهذا التصوير الموجز -الذي أدرنا حول محوره هذا العرض الذي يكشف الغطاء عن مقومات هذه الغزوة المباركة- وهي أول غزوة قتالية جابه فيها المجتمع المسلم أعداءه، دون قصد منه إلى المجابهة والقتال- ويبين أسبابها ودوافعها، ويوحي بنتائجها التي كان لها خطرها في موازين الحياة، وكان لها أثرها البليغ

على سير التاريخ في مسيرة البشرية كلها أينما وجدت من أقطار الأرض، تستبين حقائق الموقف بين المجتمع المسلم في تركيبه الجديد بقيادة رسول الله ﷺ، الذي خرج بمن معه من أصحابه على غير أهبة في عدد أو عدة؛ ليلقى عير قريش في غير قصد إلى قتال، ولم يدُرْ بخلد أحد من أصحابه أنه ﷺ يلقى في خرجته قتالًا، فلم يخرج معه إلا من حضره منهم، وهو يوجههم للتعرض للعير بإمرة أبي سفيان، وبين مجتمع الطغاة من ملأ قريش وأشرافهم وغوغائهم من سائر بيوتاتهم وبطونهم، يدفعهم عتو الكفر وفجور الوثنية، وحقد العصبية القبلية، على أعظم أهبة مادية.

وكان النبي ﷺ قد استطلع أخبارهم في عددهم وعدتهم وأسماء أشرافهم الذين أحرق الحقدُ أكبادهم وقلوبهم، ولم يكن أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا معه في عددهم وضعف عدتهم ليقعوا معهم في ميزان التكافؤ المادي على أي مقياس من مقاييس تكافؤ القوى المتحاربة، وكان في استطاعته ﷺ أن يرسل إلى أصحابه الذين لم يرافقوه في خرجته ومكثوا بالمدينة؛ لأنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله ﷺ سيلقى قتالًا، يستنفرهم ويخبرهم بأمر قريش وتكالبهم على مجتمعهم المسلم ليستأصلوه بما جاءوا به من الحشود المتأهبة ماديًا أقوى تأهب تملكه وتستطيعه.

مضيّ رسول الله ﷺ بمن معه قدمًا بعزمٍ لا يداخله تردد:

ولكنه ﷺ لم يصنع شيئًا من هذا، بل رأى بثاقب فكره، وحكمة تدبيره ألا يشعر أعداءه من طغاة ملأ قريش بشيء يزيد من كَلَبِهم

عليه وعلى أصحابه؛ لأنهم لو عرفوا أنه ﷺ أرسل يستنفر بقية أصحابه بالمدينة لزاد طمعهم وتكالبهم، ورأى ﷺ أن مجتمعه المسلم لم يكن ليقاتل في سبيل الله لنشر دعوة الحق والهدى والخير بكثرة عدد وقوة عدة اعتمادًا على الأسباب المادية في استجلاب النصر، وإنما كان المجتمع المسلم معتمدًا على قوة الإيمان وصدق العزائم المخلصة، وحب الموت استشهادًا في سبيل الله ليكون ذلك منهجًا أبديًا للدعاة إلى الله، ودرسًا تربويًا من دروس الجهاد لنصرة الحق، يتلقاه أصحابه في أول لقاء قتالي بينهم وبين أعدائهم، أعداء الحق والخير يورثونه لمن بعدهم جيلًا فجيلًا حتى يصبح هذا الدرس دعامة من دعائم المنهج القتالي في جهاد أعداء المجتمع المسلم لإعلاء كلمة الله.

ومن ثم جعل تدبيره للقتال -بمجرد أن أحاط علمًا بنفير قريش، ومسيرهم من مكة ليمنعوا عيرهم، ويحموا أموالهم في جموع عطشى للدماء وعدة عارمة، وقوة مادية هائلة من السلاح والمؤن- يعتمد أساسًا على قوة الإيمان، وصدق التوكل على الله، والثقة بنصره مع استكمال الجهد في الأخذ بالأسباب المادية الممكنة، واجتماع الكلمة، وتوحيد الصف، والإحاطة علمًا بقوة العدو العددية والعتادية، ليخوض الجيش المعركة على بصيرة وهدف مقصود.

في ضوء هذه المبادئ المستهدفة للحق ونصرته جمع رسول الله ﷺ من كان معه من أصحابه مستشيرًا لهم بعد أن أنبأهم بمسير

قريش إليهم، ليستخرج ما عندهم من عزائم الإيمان الصادقة وقوة اليقين الراسخة، والثقة بموعود الله، وحب الاستشهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا.

فبدأ الخيران: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، فقالا فأحسنا القول، وكانا في الذروة من الحكمة وسداد الرأي، وحسن السياسة، وعمق الفهم للموقف، ومعرفة المنهج النبوي في الشدائد والأزمات معرفة لا تفوتهما منه شاردة ولا واردة، مع شدة الإخلاص في المشورة، وسابغ الاستعداد النفسي، وكانا المتكلمين باسم المهاجرين، المعبرين عن رأيهم أصدق تعبير، وهذا كما ورد في بعض مصادر السيرة أن النبي ﷺ: استشار الناس، فتكلم المهاجرون، فأحسنوا، ثم أعاد ﷺ الاستشارة، فقام أبو بكر فقال فأحسن، قال الزرقاني في شرح المواهب: ولم أر من ذكر كلام أبي بكر، ثم قام عمر فقال فأحسن القول، وذكر ابن عقبة وابن عائذ أن عمر قال: يا رسول الله، إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته، وعند صاحب العيون: فتأهب لذلك أهبته.

حديث المقداد في المشورة واستشهاده بآية المائدة:

ثم قام بعدهما المقداد بن عمرو، قال ابن سعد في نسبه: (البهراني) أحد نجباء أصحاب رسول الله ﷺ وكان يقال له: المقداد بن الأسود، وذلك لأن الأسود بن عبد يغوث الزهري خال رسول الله ﷺ كان قد تبناه في الجاهلية وحالفه فدعي باسمه على عادة ما كان عند الجاهلية في الأدعياء، فلما جاء الإسلام بإبطال عادة التبني ورد المتبنين إلى آبائهم إن علموا، رُدّ المقداد إلى نسبه فدعي لأبيه، فقيل له: المقداد بن عمرو.

وكان المقداد في إسلامه من طلائع الرعيل الأول الذين سبقوا إلى الإسلام، فكان سابعَ سبعة ممن دلفوا إلى ساحة الإيمان الصبور، ولهذا كان حقيقًا بهذا الموقف النبيل في حديث المشاورة إذ وقف بعد الخَيِّرَيْنِ والشدائد مستحكمة، فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك. والله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤).

وحديث المقداد رواه البخاري عن عبد الله بن مسعود من طريق مخارق عن طارق بن شهاب قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤) ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي أشرق وجهه وسره.

وكذلك رواه النسائي من حديث مخارق، وفي كل هذه الروايات تذكر الجملة القرآنية على أنها من حديث المقداد مستشهدًا بها، بيد أنه ورد في مسند الإمام أحمد عن أنس -رضي الله عنه- من طريق حميد الطويل، قال أنس: استشار النبي ﷺ مخرجه إلى بدر فأشار عليه أبو بكر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم، فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله ﷺ يا معشر الأنصار، فقال بعض الأنصار: يا رسول الله، إذن لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤) ولكن والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى بَرْك الغِماد لاتبعناك.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح.

وفي هذه الرواية من مسند أحمد لم يعين قائل ذلك، بل نسب إلى بعض الأنصار غير معين، والمعروف أن هذا متردد بين السعدين، سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وهما سيدا الأنصار، والجمهور على أنه لسعد بن معاذ، والإسناد إلى سعد بن عبادة رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن أنس بن مالك، وفيه: فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب

أكبادهـا إلى بَـرْك الغِمـاد لفعلنا ، وليـس فيه ذكر لآيـة المائدة .
وصاحـب العيون يسـنده إلى مسـلم . وهو في صحيحـه كما قال صاحب العيون : وروينا من طريق مسلم أن الذي قال ذلك سعد بن عبادة سـيد الخزرج ، ولفظه عن أنس أن رسـول الله ﷺ شاور حين بلغـه إقبال أبي سـفيان فتكلم أبو بكر فأعـرض عنه ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سـعد بن عبادة فقال : إيانا يريد رسول الله ﷺ : والذي نفسـي بيده لو أمرتنـا أن نخيضها البحـر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلنا ، ولم تذكر الجملة القرآنية في كلام سعد بن عبادة[٢٣] .

طريقة الحافظ ابن حجر في الجمع بين الروايات ونقدها وتحقيق البحث:

قـال ابن حجـر : ويمكـن الجمع بأنـه ﷺ استشـارهم مرتين الأولى بالمدينة أول ما بلغه خبر العير ، وذلك بيّن من لفظ مسـلم عن أنس في قوله ، إنه شـاور حين بلغه إقبال أبي سـفيان ، والثانية كانت بعد أن خرج ﷺ كما في حديث الجماعة .

ثـم قال ابن حجـر : ووقع عند الطبراني أن سـعد بن عبادة قال

(٢٣) استشـارة الرسول صلى الله عليه وسلم للقوم وردودهم عليه تشي بأنهم في المدينة وجاءهم خبر خروج قريش لقتالهم ولا تشـي بأنهم خرجوا ليسـتولوا على العير فواجهوا النفير . (المجلة)

ذلـك بالحديبيــة، وهـذا أولـى بالصـواب، وهـذا التصويب غير مسلم، لأن الأنصار في الحديبية -وكانت سنة ست- لا يحتاجون إلى تعرف موقفهم، ويؤيد الإسـناد إلى سعد بن معاذ ترجيح رواية أن سـعد بن عبادة لم يشـهد معركة بدر، وذكره في البدريين عند الواقدي والمدائني وغيرهما إنما هو باعتبار أنه أسهم له فيها لأنه كان يحرض الناس على شهودها وكان حريصًا عليها، ولكنه نهش فتخلف عنها(٢٤)، وله في الإسـهام بغير شـهود المعركة إخوة من المهاجريـن والأنصار مـن أكرمهم عثمان بن عفان، لم يشـهدها وعـد فـي طلائع أهلهـا، وقد روي في عدم شـهود سـعد بن عبادة بـدرًا حديث إذا صـح كان قاطعًا في الاسـتدلال، ذلك ما روى عن رسـول الله ﷺ أنه قال: "لئن كان سعد لم يشهدها لقد كان عليها حريصًـا" فضـرب له ﷺ بسـهمه وأجره، وقد ذكـر هذا صاحب (العيون) فقال: وروينا عن ابن سعد أنه -أي سعد بن عبادة- كان يتهيأ للخروج إلى بدر، ويأتي دور الأنصار، يحرضهم على الخروج فنهش قبل أن يخرج، فأقام، فقال رسـول الله ﷺ: "لئن كان سـعد لم يشـهدها لقد كان عليها حريصًا" ثم قال صاحب العيون مؤيدًا عدم شهوده لها: وروى بعضهم أن رسول الله ﷺ ضرب له بسهمه وأجـره، وليس ذلك بمجمع عليـه ولا ثبت، ولم يذكره أحد ممن يروي المغازي في تسمية من شهد بدرًا.

(٢٤) نُهِش: لدغته حية. (المجلة)

أما أن عدم شــهوده بدرًا غير مجمع عليه فمسلم، لأن الخلاف مذكور، وأما أن رســول الله ﷺ ضرب له بســهمه وأجره فثابت من طريــق الواقــدي والمدائنــي كما ذكــر صاحب العيون نفســه قبل ذلــك بأســطر في نفــس عيونه إذ قال: واختلف في شــهود ســعد بــن عبادة بدرًا، لم يذكــره ابن عقبة ولا ابن إســحق في البدريين، وذكره الواقــدي والمدائني وابن الكلبي فيهم، وأقل درجات ذلك أنه ضرب له بســهمه وأجره فكان في عدادهم لتخلفه عن شهودها لعذر مع حرصه على شهودها.

وقد ذكر ابن ســعد فــي الطبقات من طريق ســليمان بن حرب عن حماد ابن زيد، عن أيوب عن عكرمة قال: استشــار رســول الله ﷺ يومئذ الناس، فقال ســعد بن عبادة أو ســعد بن معاذ: يا رسول الله ســر إذا شئت، وانزل حيث شــئت، وحارب من شئت، وسالم من شئت، فو الذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها حتى تبلغ بَرْك الغِماد من ذي يمن تبعناك، ما تخلف عنك منا أحد.

والإِسناد إلى ســعد بن معاذ رواه ابن مردويه، وفيه: فقال سعد بــن معاذ: يا رســول الله إيانا تريد؟ فو الــذي أكرمك وأنزل عليك الكتــاب ما ســلكتها قط، ولا لي بها علم، ولئن ســرت حتى تأتي بَــرْك الغِماد من ذي يمن لنســيرن معك، ولا نكــون كالذين قالوا

لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك إنا معكم متبعون، ولعل أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به من أمر فأمرنا تابع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك. وكذلك رواه ابن إسحق وعنه أخذه جمهور من ألَّف في السيرة والشمائل.

وفي ورود الجملة القرآنية ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ في حديث المشاورة لغزوة (بدر) -سواء أكان ذلك في كلام المقداد بن عمرو كما رواه البخاري في صحيحه، أو في كلام بعض الأنصار غير معين قائله، كما في مسند أحمد عن أنس، أو في حديث سعد بن معاذ كما رواه ابن إسحاق وغيره- إشكال ذلك أن هذه الجملة القرآنية بعض آية من سورة المائدة وهي سورة مدنية من آخر ما نزل كما هو صريح حديث عائشة -رضي الله عنها- من طريق جبير بن نفير، كما أخرجه أحمد، والنسائي، والحاكم وصححه، والبيهقي، وابن مردويه، قال

جبير : حججت فدخلت عليّ عائشة ، فقالت لي : يا جبير ، تقرأ سورة المائدة ؟ فقلت : نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم من حرام فحرموه ، وكما يدل عليه حديث عبد الله بن عمرو عند أحمد والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عبد الله بن عمرو قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة والفتح .

وعن محمد بن كعب القرظي قال : نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، فيما بين مكة والمدينة ، وهو على ناقته ، فانصدعت كتفها ، فنزل عنها رسول الله ﷺ .

وعن الربيع بن أنس عند الطبري ، قال : نزلت سورة المائدة على رسول الله ﷺ في المسير في حجة الوداع ، وهو راكب راحلته ، فبركت به راحلته من ثقلها .

وأخرج أبو عبيد عن ضمرة بن حبيب ، وعطية بن قيس قالا : قال رسول الله ﷺ : « المائدة من آخر القرآن تنزيلًا ، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها » . ذكر هذه الأحاديث والآثار السيوطي في الدر المنثور .

بيد أن استشهاد المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجملة من آية في أوائل آيات سورة المائدة في حديثه عند البخاري في مشاورة القتال ببدر يفهم

منــه أن هذه الجملة القرآنيــة التي ذكرها المقداد في حديثه كانت معروفــة عند النــاس قبل غزوة (بــدر)، وهذا يقتضــي أن آية هذه الجملــة القرآنية من ســورة المائدة، أو على أقــل تقدير أن الجملة القرآنية المستشــهد بها كانت ســابقة النزول علــى غزوة (بدر) التــي كانت في الســنة الثانية مــن الهجرة في شــهر رمضان منها، وهذا لا يتمشى مع اتفاق المفسرين المؤيد بالأحاديث الصحيحة والآثــار أن ســورة المائــدة نزلت بعد ســورة الفتح التــي نزلت في الطريق بين الحديبية والمدينة، مُنْصَرفَ رســول الله ﷺ وأصحابه بعد عقد الهدنة مع قريش في ســنة ســت، فهي متأخرة النزول عن بدر بنحو أربع ســنوات على الأقل على هــذا التقدير، وبنحو أكثر مــن ثماني ســنوات على ما يقتضيه أثر محمد بــن كعب القرظي، وأثــر الربيع بن أنس اللذان فيهمــا التصريح بأن المائدة نزلت في المسير في حجة الوداع، وقد اعتمدنا حديث البخاري لعلوه سندًا في أن قائل ذلك المقداد، ويؤكده أن البخاري ذكر الحديث نفسه بعين السند في كتاب (التفسير) من جامعه الصحيح، فقال: باب (فاذهــب أنت وربك فقاتــلا إنا هاهنا قاعــدون) حدثنا أبو نعيم، حدثنــا إســرائيل عن مخارق، عن طارق بن شــهاب: ســمعت ابن مســعود قال: شــهدت من المقداد، ثم ذكر البخاري له سندًا قبل

مخـارق فقال: وحدثني حمدان بن عمر، حدثنا أبو النضر، حدثنا الأشجع، عن سفيان، عن مخارق، عن طارق عن عبد الله قال: قال المقـداد يوم (بدر) يا رسـول الله، إنا لا نقول لـك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ ولكـن امض ونحن معك، فكأنه سُرِّي عن رسول الله ﷺ.

ويلاحظ أن بين روايتي البخاري لهذا الحديث في كتاب المغازي، وكتاب التفسـير اختلافًـا بالزيادة والنقص، مع وحدة السـند من طريق مخارق، وليس هذا الاختلاف بمنزل الحديث عن درجته في علو الصحة والثبوت.

وهذا الإشـكال بالاستشـهاد بالجملة القرآنية من آية في سورة المائدة في مشـاورة القتال ببدر كما هو وارد على حديث المقداد عنـد البخاري -وهو أصح سـندًا- وارد على حديـث أحمد وغيره ممن أسـند الاستشـهاد بالجملـة القرآنية إلى بعـض الأنصار غير معين، أو من أسندها إلى سعد بن معاذ كابن إسحاق وابن أبي شيبة وابن عائـذ، وابن مردويـه، وجمهور المتأخريـن الذين يعتمدون على ابن إسحاق.

فكيف إذن يكون محمل الاستشـهاد بهذه الجملة القرآنية من

سـورة المائدة في مطلع المشـاورة لقتال المشركين يوم (بدر) ؟ فهل كانت هذه الجملة القرآنية وآيتها سابقة في نزولها لسورتها، ثم وضعت في موضعها منها توقيفًا لمناسبتها؟ ونحو هذا موجود فـي آيات القرآن، لكنه في الآيـات كاملة، لا في جملة منها، تنزل الآية لمناسـبة اقتضـت نزولها، ثـم تلحق توقيفًا بأمـر النبي ﷺ بسورتها في موضعها تلاوة.

أو كانـت هذه الجملة القرآنية مما هـو مذكور بمعناه عند بني إسـرائيل في قصـص أسـلافهم وأحـداث تاريخهم التـي تصمهم بالجبن والخور والخوف من ملاقاة عدوهم، وانتشرت بين الأنصار لشـدة مخالطتهم لهم، فأخذها عنهم المهاجرون الأولون، وفيهم المقـداد بن عمـرو، ثم نزلت فـي آيتها من سـورة المائدة حينما نزلت على رسول الله ﷺ.

ولكن هذا الاحتمال يعكـر عليه أن البخاري -رحمه الله- أورد الجملـة القرآنيـة في كتاب التفسـير من جامعـه الصحيح، وأورد بعدها حديث ابن مسعود المتقدم في كتاب الغزوات تفسيرًا لها، وهـذا يدل على أن البخاري فهم أنها جملة من آية من آيات سـورة المائـدة، كانت قد نزلت على رسـول الله ﷺ قبـل غزوة (بدر)، وأن المقـداد بن عمرو ذكرها مستشـهدًا بها على أن المسـلمين

ليسوا كاليهود في خور عزائمهم وجبنهم عن ملاقاة أعدائهم، فلا يقولون لرسولهم ﷺ ما حكاه الله في القرآن الحكيم عن اليهود من الهلع ووهن العزيمة وقولهم لرسولهم موسى -عليه السلام- ما سجله عليهم من سوء الأدب مع الله -تعالى-، مبينًا أن المسلمين سامعون لأوامر رسولهم ﷺ، مطيعون لرغبته يقاتلون معه، وهم حافون به، عن يمينه وعن شماله، ولو خاض البحار لخاضوها معه، ولو سار بهم لعدوهم إلى أقصى الأرض لساروا معه، نفوسهم وأموالهم في يديه، يوجهها في سبيل نشر رسالته كيف يشاء، يرجون نصر الله وحسن العاقبة، لا يخافون الموت، ولكنهم مقاديم يطلبونه في مظانه لينالوا الشهادة في سبيل الله.

ولهذا كان الاحتمال الأول راجحا نقلا وعقلا، وهو أبعد عن شبهة أن يكون شيء من القرآن بلفظه كان مذكورا ومقدورا عليه على أحد البشر قبل نزوله على رسول الله ﷺ مما يجر إلى سوء العقيدة، ويكون فتنة لبعض الناس، كالذي قيل في قصة عبد الله بن سعد بن أبي سرح أنه كان يكتب الوحي للنبي ﷺ، فأملى عليه رسول الله ﷺ قول الله -تعالى- فيما أنزله من بيان

أطوار خلق الإنسان ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون: ١٢) إلى قوله:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ فعجب ابن أبي سرح مما سمع، فقال: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤) فقال له النبي ﷺ: «اكتب، هكذا نزلت» فقال ابن أبي سرح: إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليّ وارتد عن الإسلام وفر هاربا إلى مكة، فلما فتحت مكة جاء به بن عفان رضي الله عنه -وكان أخاه من الرضاع- إلى النبي ﷺ مستشفعا له، وقد راجع الإسلام وتاب وحسن إسلامه، وكان من قادة الفتوحات الإسلامية، ومات وهو يسلم من صلاة الصبح.

أمثل الروايات في قصة ختم آيات خلق الإنسان:

وأمثل منها سندا وسياقا ما ذكره السيوطي في (الدر المنثور) قال: وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن صالح أبي الخليل، قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ قال عمر: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت به يا عمر) ويؤكد ذلك حديث أنس في موافقات عمر لربه -تعالى- الذي أخرجه

الطيالسي وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر، كما ذكره أيضا السيوطي في دره.

وقد نسب التكلم بخاتمة آية أطوار خلق الإنسان إلى معاذ بن جبل في حديث زيد بن ثابت الذي رواه ابن راهويه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، قال زيد بن ثابت: أملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ فقال معاذ بن جبل: (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك رسول الله ﷺ فقال له معاذ: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «إنها ختمت [بقوله] فتبارك الله أحسن الخالقين».

سياق ابن سعد عن شيخه الواقدي لقصة المشاورة في قتال بدر مخالف لسياق الجمهور:

وقد يكون من أعجب وأغرب ما واجهه البحث في قصة مشاورة النبي ﷺ أصحابه -وخاصة الأنصار منهم، ليتعرف موقفهم في قتال غزوة (بدر) وراء اختلاف الروايات في سياق حديث هذه الغزوة المباركة اختلافا متباعد الملتقى -موقف أبي عبد الله محمد بن سعد في طبقاته الكبرى، وهو يسوق حديث المشاورة بروايات متعددة، فإذا بهذا الحديث يخلو تماما من التعرض لذكر الجملة القرآنية ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤) التي كادت تجمع على ذكرها الروايات في جميع ما أمكننا الاطلاع عليه من مصادر السيرة النبوية، ومراجع تاريخ

الدعوة الإسلامية وأسفار الغزوات، مسندة إلى المقداد بن عمرو، ومـرة إلى بعض الأنصار، وأخرى إلى سـعد بن معاذ سـيد الأوس، وحسبك ذكرها في صحيح سيد المحدثين وإمام الرواة محمد بن إسماعيل البخاري في أكثر من موضع من الصحيح.

ومحمد بن سـعد -وهو من طلائع مدوني تاريخ صدر الإسلام، وأحداثه وتراجم رجاله، وهو من أقدم مؤلفي أحداث السيرة النبوية في اسـتيعاب واسـتقصاء بالغين، وكل من جاء بعده من المؤلفين فـي هذا المجال قد أخذ عنه، وأفاد منه، وهو من ثقاة الرواة ونقاد الروايات -لم يذكر في رواية واحدة من عديد الروايات التي ساقها عن شـيوخه ورواة أحاديث طبقاته الجملة القرآنية التي استشكلنا ذكرهـا في روايات غيره، لا سـيما رواية البخـاري عن عبد الله بن مسعود في حديثه عن موقف شهده من المقداد ابن عمرو في بيان فدائيـة المجتمع المسـلم لدعوة الحق، ورسـالة الهـدى والنور، وانصيـاع هذا المجتمع المسـلم لأوامر النبـي ﷺ في متابعته في مسـيره بهم إلى ميادين الجهاد في سـبيل الله، ونشـر رسالته ﷺ في أقطار الأرض مهما لاقوا في سـبيلها من عقبات وشـدائد، ليس بأهونها الموت استشهادا لنصرتها وتأييدها.

وغزوة (بدر) أول غزوة واجه فيها المجتمع المسـلم على قلة عـدده وعدم تأهبه لقتال أعدائه حشـود الشـرك وطغيانه، وفجور الوثنيـة المادية الملحـدة، المتكالبة على هذا المجتمع المسـلم فـي كثـرة أعدادها، ووفرة عتادهـا من المؤن والسـلاح إلى درجة

الترف الخليع، وكثرة من خرج فيها من زعمائهم وقادتهم وأشرافهم ليقاتلوا بأنفسهم، ويحرضوا غوغاءهم، وجماهير المستعبدين لهم على القتال، وهم لم يتركوا وسيلة من وسائل الفجور والطغيان إلا استوعبها طواغيتهم، ولم يدعوا من طاقاتهم للقتال طاقة إلا أعدوها ليستأصلوا هذا المجتمع المسلم الذي أغصهم بقوة صبره على شدائد المحن، واحتمال قاصمات البلايا في وطنهم وبين عشائرهم حتى تمكن من قَوِيَ منهم على الهجرة، فهاجروا ليمتزجوا بإِخوانهم أنصار الله، وأنصار دينه ونبيه ﷺ في وحدة إيمانية جعلت منهم قوة مرهوبة الجانب، مخشية العزمات تترصد طريق الطغاة في رحلاتهم التجارية لتمنعهم أن يمروا آمنين بقوافلهم وعيرانهم على مدينتهم التي جعلها الله -تعالى- مستقرهم وحصن دعوتهم، لا تهاب عتو فجورهم وكثرة أعدادهم، ولا ترهب أسلحتهم وقوة عنادهم، ولا تخشى أحقادهم وطغيانهم، ولا ترفع رأسا لا غترارهم بما في أيديهم من قوة مادية فاجرة.

ومن ثم لما علم النبي ﷺ بنفير المشركين لقتال مجتمعه المسلم، وعلم بما تجمَّع إليه من معلومات عن طريق السقائَيْنِ من كثرة أعدادهم، وتوافر مؤنهم وعتادهم، وكثرة أشرافهم وطغاتهم بين حشودهم، جمع أصحابه الذين خرجوا معه على قلة عددهم وضآلة عتادهم فشاورهم في مواجهة الطغاة ومواجهتهم في ميدان القتال.

رأي المقداد في مشاورة بدر:

واختلفت الروايات في أسلوب المشاورة، وكان أول رأي شجاعٍ وصريح ساقته الروايات في فهم قصد النبي ﷺ في إعداد مجتمعه نفسيا لمواجهة الطغيان في ميدان القتال هو رأى المقداد بن عمرو الذي رواه البخاري وغيره عن عبد الله بن مسعود، وفيه سوق الجملة القرآنية التي تنعي على بني إسرائيل خور عزائمهم، وهلع قلوبهم، وجبنهم، وسوء أدبهم في إجابتهم رسولهم موسى -عليه السلام-، مبينا المقداد في إبداء رأيه أن المجتمع المسلم لا يقف من رسوله محمد ﷺ ذلك الموقف الرعديد الجبان الذي وقفه بنو إسرائيل من رسولهم، ولكن المجتمع المسلم الذي رباه محمد ﷺ على منهاج رسالته يقف من نبيه ورسوله موقف الشجاعة في نصرة الحق، فهو مجتمع تربى على السمع والطاعة لرسوله ﷺ الذي لو خاض بهم البحار لخاضوها معه ما تخلف منهم أحد، يجاهدون في سبيل الله لنصرة نبيهم ونشر دعوته صابرين صادقين، محتسبين أرواحهم عند الله الذي عرفوه بوحدانيته واقتداره، وجلال قهره وكبريائه.

استطلاع رأي الأنصار وإجابة سعد بن معاذ عنهم:

ثم كرر رسول الله ﷺ قوله: «أشيروا عليّ أيها الناس» وهو ﷺ يريد أن يتعرف رأي الأنصار ويسمع من زعمائهم وأشرافهم ما يدور في أخلدتهم وتنطوي عليه أفئدتهم في هذا الموقف الآزم؛

لأنهـم كانوا أعداد الناس وجمهرتهـم، وكانوا إذ بايعوا النبي ﷺ بيعة السـبعين بالعقبة - كما في حديث جابـر الطويل عند الإمام - أحمـد - أعطوه عهودهم ومواثيقهم على أنه ﷺ إذا قدم عليهم بلدهـم ينصرونـه فيمنعونه ممـا يمنعون منه أنفسـهم وأزواجهم وأبناءهم، ولهم الجنة(٢٥).

فـأراد ﷺ أن يتأكد، ويسـمع مَن لم يكـن حضر البيعة رأي مَن حضرهـا من أن نصرته ﷺ عليهم ومنعـه وحمايته وحماية دعوته في داخل المدينة وخارجها.

فتكلم السـعدان: سعد بن معاذ سـيد الأوس، وسعد بن عبادة سـيد الخـزرج معبرين عن رأيهما ورأي سـائر الأنصـار، كما جاء صريحًـا عن سـعد بن معاذ عند ابن سـعد في الطبقـات إذ قال في إجابته لرسوله ﷺ حين قال: «أشيروا عليَّ» بعد أن تكلم المقداد بـن عمرو، وإنما يريد ﷺ الأنصار، فقام سـعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسـول الله تريدنا؟ فقال ﷺ: «أجل» قـال سـعد بن معـاذ: فامض يا نبـي الله لمـا أردت، فوالذي بعثك بالحق لو اسـتعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد.

---

(٢٥) هـذه العبـارات من أثبت ما ورد عن بيعة العقبة الثانية ولا يسـتقيم معها أن يكون الرسول ﷺ قد خرج ليتعرض للتجارة؛ لأنه يكون إخلالاً منه لميثاق البيعة. فلا يبقى إلا أن قريشًا قد أتت معتدية لا مدافعة عن تجارتها. (المجلة)

وروى كلام سعد بن معاذ محمد بن إسحاق بأطول من ذلك، وليس فيه: أنا أجيب عن الأنصار، فقال: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: «أجل» قال سعد: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسِر على بركة الله.

وأما كلام سعد بن عبادة فهو - كما قدمنا - رواية مسلم وأحمد عن أنس بن مالك، وفيه أن المشاورة كانت حين أقبل أبو سفيان، فقال سعد بن عبادة - بعد أن تكلم أبو بكر فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه: إيانا يريد رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلناه.

وهذا الكلام لا يلائم المشاورة للقاء العير، وإنما يلائم السير للقتال، وفيه دليل على ترجيح رأي مَن قال إن سعد بن عبادة شهد بدرًا بنفسه، وكان من أشراف جنود المجتمع المسلم فيها.

ورود الجملة القرآنية في كلام الأنصار:

وفـي بعض روايات أحاديث الأنصـار وكلمات زعمائهم جاءت الجملـة القرآنيـة الناعيـة على بنـي إسـرائيل موقفهـم الرعديد الجبـان من رسـولهم ووعد ربهـم، كحديث أبي أيـوب الأنصاري مـن طريـق عبد الله بن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أسـلم عن أبي عمران أنه سـمع أبا أيوب الأنصاري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحـن بالمدينة: «إنـي أخبرت عن عير أبي سـفيان أنهـا مقبلة، فهـل لكم أن نخـرج قِبَل هذه العير لعـل الله يُغنِّمناها» فقلنا: نعم فخرج وخرجنا، فلما سـرنا يومًا أو يوميـن قال لنا: «ما ترون في القوم فإنهم قد أُخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم: ولكنـا أردنا العير، ثم قال ﷺ: «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنـا مثل ذلك، فقـام المقداد بن عمرو فقال: إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى:

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾

(المائدة: ٢٤)

قـال أبـو أيوب: فتمنينا معشـر الأنصار لو أنا قلنـا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم.

وكحديـث أنس بن مالك عند أحمـد من طريق حميد الطويل، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: استشـار النبي ﷺ مخرجه إلى (بدر) فأشـار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رسول الله ﷺ يا معشـر الأنصار، فقال بعض الأنصار: يا رسول الله، إذن لا نقول

كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ (المائدة: ٢٤) ولكن والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى بَرْك الغماد لاتبعناك.

والجملة القرآنية مذكورة في جميع هذه الروايات، ورواية البخاري أصح الروايات في أحاديث المشاورة سندًا، وهي من أقوى دواعي إيراد الاستشكال بها في ذكر الجملة القرآنية التي هي بعض آية من سورة المائدة، والمائدة آخر ما نزل من القرآن كما في حديث جبير بن نفير عن عائشة رضي الله عنها.

ولو لم يروها البخاري عن المقداد ويُدخلها في كتاب التفسير من صحيحه لكان لموقف ابن سعد في عدم ذكر الجملة القرآنية في رواياته المتعددة المختلفة إسنادًا وأسلوبًا ما يرجحه على سائر روايات مَن ذكرها سوى البخاري، أو على أقل تقدير يكون له ما يجعله في مستوى تلك الروايات في مجال التأويل.

ونحن نسوق كلام ابن سعد نقلًا عن طبقاته، وهو كلام موجز لم يستوعب فيه ذكر الروايات المتماثلة كما صنع غيره ليكون بين يدي الناظر في البحث على ضوء أحاديث المشاورة في قتال (بدر).

قال ابن سعد: ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دون (بدر) أتاه الخبر بمسير قريش فأخبر به أصحابه واستشارهم، فقال المقداد بن عمرو البهراني: والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لسرنا معك حتى تنتهي إليه.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ» وإنما يريد الأنصار. فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا؟ قال: «أجل». فقال سعد بن معاذ: فامض يا نبي الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك ما بقي منا رجل واحد، فقال رسول الله ﷺ: «سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، فوالله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

ثم عاد ابن سعد إلى حديث المشاورة بعد أن مر في ذكر أحداث الغزوة، فقال: أخبرنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن عكرمة قال: استشار رسول الله ﷺ يومئذ الناس، فقال سعد بن عبادة أو سعد بن معاذ: يا رسول الله، سر إذا شئت، وانزل حيث شئت، وحارب مَن شئت، وسالم مَن شئت، فوالذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها حتى تبلغ بَرْك الغِماد من ذي يمن تبعناك، ما تخلف عنك منا أحد.

ترجيح نسبة كلام الأنصار في مشاورة بدر إلى سعد بن معاذ:

ولم نر لابن سعد كلامًا في حديث المشاورة غير هذا الذي ذكره في موضعين متقاربين من طبقاته، وقد اختلف كلامه في الموضعين، ففي الموضع الأول جزم دون شك أو تردد أن المتكلم عن الأنصار هو سعد بن معاذ، وهذا موافق لرأي جمهور مؤلفي السيرة ومدوني غزواتها، وموافق لما دلَّت عليه أحداث الغزوة ووقائعها من الجزم بشهود سعد بن معاذ (بدرًا) ومشاركته في

أحداثها منذ بدأت مقدماتها وأسبابها إلى أن انتهت وقائعها بالنصر المؤزر، وكان من أقرب الملازمين لرسول الله ﷺ في تدبير أمر القتال، وإدارة حوادثه في مواقعها من ميدان المعركة.

وكان سعد بن معاذ على رأس حرس رسول الله ﷺ، وهو في عريشه الذي اقترح سعد إقامته ليقيم فيه رسول الله ﷺ لإدارة رحى المعركة.

العريش في بدر كان أشبه بغرفة العمليات الحربية في الاصطلاح الحديث:

ولعل هذا العريش هو أول (غرفة) عمليات حرب، يكون فيها قائد المعركة الأعظم - ومعه خاصة قواد جنده ومساعدوه في إدارة المعركة، والحاملون لأوامره إلى عامة الجند - في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ المعارك الحربية عامة.

وفي الموضع الثاني عند ابن سعد ذُكر السعدان: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ على سبيل التردد بينهما في نسبة الكلام الذي أُجيب به رسول الله ﷺ على قوله «أشيروا عليَّ» لأحدهما غير معين، والمعروف أن سعد بن معاذ كان من شهود (بدر) باتفاق الرواة، أما سعد بن عبادة فقد جرى فيه الخلاف، هل شهد (بدرًا) أو لم يشهدها.

ولعل محمد بن سعد لم يترجح عنده عدم شهود سعد بن عبادة (بدرًا) ولا سيما أن شيخه الواقدي ذكر سعد بن عبادة في عداد البدريين، ولعل محمد بن سعد فهم من كلام شيخه الواقدي أن سعد بن عبادة شهد (بدرًا) وكان من أشراف جندها المحاربين.

وتأويـل كلام الواقـدي بما قدمنـاه عن بعـض الباحثين من أن مرجعه أن سـعد بن عبادة كان حريصًا أشـد الحرص على شهودها والتجهز لها – كما شهد له النبي ﷺ بذلك – ولكنه نُهِش فتخلف عنها، فضرب له رسـول الله ﷺ بسـهمه وأجره – لم يره ابن سعد وجهًـا مقبولًا، وأجرى الكلام على ظاهره في عده سـعد بن عبادة من شـهود (بـدر)، ولعله حضرها بعد أن ذهب عنـه ما خلفه عن مصاحبة جيش المسلمين، ثم لحق بهم.

ويرشـح هذا أن اسـم سـعد بن عبادة لم يُذكر في أسماء الذين تخلفـوا عـن شـهود (بـدر) لعلـة، وضـرب لهم رسـول الله ﷺ بسـهامهم وأجورهم، وكانوا ثمانية نفر – كما ذكرهم ابن سـعد – ثلاثة من المهاجرين، وهم عثمان بن عفان، خلفه رسول الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسـول الله ﷺ، وكانت مريضة، فأقام عليها حتى ماتت، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد بعثهما رسول الله ﷺ يتحسسان خبر العير.

وخمسـة مـن الأنصار، وهـم أبو لبابة بـن عبد المنـذر، خلفه رسول الله ﷺ على المدينة، وعاصم بن عدي العجلاني خُلِّف على أهـل العالية، والحارث بن حاطب العمري، رده رسـول الله ﷺ من الرَّوحـاء إلى بني عمرو بن عوف لشـيء بلغه عنهم، والحارث بن الصمـة، كُسِـر بالروحاء، وخوات بن جبير كُسِـر أيضًا، فلو كان

سعد بن عبادة تخلف عن شهود (بدر) لنهشته[٢٦] مع شدة حرصه على شهودها لذكر اسمه في أسماء الذين تخلفوا عن شهودها لعلة مقبولة، وعذر قاهر، ولكانت نهشته بمنزلة كسر الحارث بن الصمة وخوات بن جبير.

مخالفة ابن سعد لشيخه الواقدي في سياق مشاورة بدر:

وابن سعد في صنيعه وسياقته لحديث مشاورة النبي ﷺ أصحابه في قتال المشركين ببدر، إلى جانب مخالفته لجمهور أهل السير والمغازي في عدم ذكر الجملة القرآنية على لسان المقداد أو لسان بعض الأنصار، سواء أكان أحد السعدين أم غيرهما، قد خالف شيخه محمد بن عمر الواقدي في مغازيه التي ساق فيها الحديث متوافقًا مع الجمهور، فقال: ومضى رسول الله ﷺ حتى إذا كان دُوَين (بدر) أتاه الخبر بمسير قريش، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بمسيرهم، واستشار رسول الله ﷺ الناس، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر، فقال فأحسن، ثمل قال: يا رسول الله إنها - والله - قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبدًا، ولتقاتلنك، فتأهب لذلك أهبته، وأَعِد لذلك عدته.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها:

---

(٢٦) أي بسبب تعرضه للنهش من حية لدغته. (المجلة)

﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لسرنا معك.

قال الواقدي: وبَرْك الغِماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر، وهو على ثمان ليال من مكة إلى اليمن - فقال له - أي للمقداد - رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير.

التطلع لرأي الأنصار وإجابة سعد بن معاذ عنهم:

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وإنما يريد رسول الله ﷺ الأنصار، وكان يظن أن الأنصار لا تنصره إلا في الدار، وذلك أنهم شرطوا له أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأولادهم، فقال رسول الله ﷺ: «أشيروا علي» فقام سعد بن معاذ: فقال: أنا أجيب عن الأنصار، كأنك يا رسول الله تريدنا؟ قال: «أجل». قال سعد: إنك عسى أن تكون قد خرجت عن أمر أُوحي إليك ثم أُوحي إليك في غيره، وإنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن كل ما جئت به حق، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبي الله، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما بقي منا رجل، وصل مَن شئت، واقطع مَن شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت، والذي نفسي بيده ما سلكتُ هذا الطريق قط، وما لي بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدونا غدًا، إنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك.

ثــم قال الواقدي: حدثنــي محمد بن صالح، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، قال: قال سـعد: يا رسـول الله، إنا قـد خلفنـا من قومنا قومًا ما نحن بأشـد حبًا لـك منهم، ولا أطوع لـك منهم، لهم رغبة في الجهاد ونية، ولو ظنوا يا رسـول الله أنك ملاق عدوًا ما تخلفوا، ولكن إنما ظنوا أنها العير، نبني لك عرشًا وتكـون فيـه ونعد لـك رواحلك، ثـم نلقى عدونا، فـإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى جلست على رواحلك فلحقت مَن وراءنا.

فقـال له النبي ﷺ خيرًا، وقال - أي النبي ﷺ - «أو يقضي الله خيرًا من ذلك يا سـعد» قال الواقدي عن محدثيه بالسند المتقدم: قالوا: فلما فرغ سـعد من المشـورة قال رسـول الله ﷺ: «سـيروا علـى بركة الله، فـإن الله قد وعدني إحـدى الطائفتين، والله لكأني أنظـر إلى مصارع القـوم» وأرانا رسـول الله ﷺ مصارعهم يومئذ، هـذا مصرع فلان، وهذا مصرع فـلان، فما عدا رجل مصرعه لقول النبي ﷺ.

الواقدي يذكر مشورة المقداد في الحديبية ومناقشة كلامه:

ثـم أورد الواقـدي حديث المقداد في مشـاورة رسـول الله ﷺ أصحابـه فـي (الحديبيـة) حين وفـدوا عُمَّـارًا مقتصـرًا فيه على استشـهاد المقـداد بالجملة القرآنية، وزاد عليها قوله: لو سـرت بنا إلى بَرْك الغِماد لسـرنا معك ما بقي منا رجل. وقد تقدمت هذه الزيادة منسوبة إلى سعد بن معاذ، وهو أشبه.

ورواية الواقدي لحديث المقداد بن عمرو في مشاورة (الحديبية) لم نرها لغير الواقدي من رواة المغازي والسير، وقد ذكره الزرقاني في شرحه لمواهب القسطلاني بصيغة التمريض المشعرة بالضعف غير منسوبة للواقدي، فقال بعد أن ساق صاحب المواهب قول أبي بكر الصديق: يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمَن صدنا عنه قاتلناه. ويُروى أن المقداد بن عمرو قال نحو مقالته يوم (بدر) بعد كلام أبي بكر: إنا والله يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فقال ﷺ: «فسيروا على اسم الله تعالى».

اختلاف الأحوال في بدر عنها في الحديبية:

فهذا السياق لرواية مشورة المقداد في (الحديبية) بمثل ما أشار به في (بدر) مشعر بضعف هذه الرواية وهي حرية أن تكون مما اشتبه فيه الأمر على بعض الرواة، لأن مشاورة (الحديبية) تختلف عن مشاورة (بدر) في أسبابهما ودوافعهما، ومقاصدهما، ووضع المجتمع المسلم في عَدده وعُدده وقوته المادية والمعنوية، ووضع مجتمع الكفر والطغيان في ضعف شوكته بما أصابه من الهزائم والتفسخ في كيانه، وقتل أشرافه، وإذلال زعمائه في غزوات سابقة على الحديبية.

فالمشاورة في قتال (بدر) كان الهدف منها تعرف رأي الأنصار، وكشف ما انطوت عليه دخائل أنفسهم في هذا القتال المفاجىء، غير المتكافىء في ميزان القوة المادية عددًا وعتادًا.

والأنصار كانوا في (بدر) أعداد الناس وغمرة المجتمع المسلم الذي خرج مع النبي ﷺ، وكانوا عاهدوا رسول الله ﷺ في بيعتهم الكبرى، بيعة السبعين عند العقبة، فقالوا: يا رسول الله: إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا، وكان النبي ﷺ يريد بهذه المشاورة أن يؤكد هذا العهد في نصرتهم له على كل من يريده أو يريد دعوته إلى الله بسوء في دار هجرته أو خارجها، فكانت الأنصار في إجابتها له ﷺ وفي أفعالها وطاعتها لأمره فوق مستوى البطولة الفدائية داخل دارهم وخارجها، وصَدَقوا ما عاهدوا الله ورسوله عليه، وصدقهم الله فأثنى عليهم في تنزيله وأنزل فيهم آيات تتلى اعتقادًا وتعبدًا وسلوكًا.

شدة تأزم الموقف كانت في أشد الحاجة إلى إعلان رأي الأنصار وبطولة المقداد:

وكان موقف المجتمع المسلم شديد التأزم، يحتاج إلى لون من الشجاعة الفدائية تُزكي فيه حرارة العزائم الماضية، وتضيء له طريق الاستشهاد في سبيل العقيدة، وتحبب له الموت دفاعًا عن كيانه وحفاظًا على وجوده في تركيبه الاجتماعي الجديد، فإذا

قام بطل من أبطال هذا المجتمع المسلم في نموذج يمثله المقداد بن عمرو أحد طلائع الإسلام، وأحد نجباء أصحاب رسول الله ﷺ الذين يحفون به، يفدونه ويفدون دعوته إلى الله بأرواحهم ودمائهم - مقامه في مشــورته التــي رواها البخاري وغيره بأصح الأســانيد ووضع بهذه المشــورة أول لبنة في بناء صرح الجهاد القتالي الذي ألجئ إليه المجتمع المســلم إلجاء لم يترك له خيرة في موقفه أمام الطغــاة مــن طواغيت الوثنيــة المادية الفاجــرة المعتدين، ليكون نموذجًــا يحتذى في ميادين البطولة ومثــلا يُقتدَى به في التضحية لنصرة الحق والخير ذلك المقام الذي كان صورة لرســوخ الإيمان وصــدق العقيدة، ونموذجا للفدائية التي تعانق الموت في ســبيل عــزة الحياة، وكرامة الوجود، فإنما يكــون قد أدى بهذا المقام ما كان يتطلبه الموقف الذي لا حيدة عنه، ورسم للمشيرين من بعده منهج الســير في طريق الوصول بهذا الموقف إلي نهايته الحميدة مــن الظفر بالنصر المؤزر، والاستشــهاد في ســبيل أنبــل غاية في موقــف يحمل في ثناياه كل عناصر التفاوت المادي بين القوتين، قــوة الحق الأعزل إلا مــن الإيمان، وقوة الفجــور الكفور المدجج بكل أسلحة الدمار.

فحشود الشرك والوثنية تجمع العدد الوفير من المقاتلين الذين جلبهم الطغاة من ملأ قريش مســتوعبين فيها كل طاقات بيوتاتهم وبطون قبائلهم في أهبة لم تترك وراءها ســبدًا ولا لبدًا إلا أســهموا به في توفير العتاد والمؤن والســلاح لهذه الحشود المسعورة التي

يقودهـا زعماؤهم وأشـرافهم من غطارفة[٢٧] الكفـر العنيد، ممن أكلِ الحقـد قلوبهم، وأحرق الحسـد والغـرور أكبادهم، وملأهم غيظًـا حانقًـا، وعتـوًا متجبـرًا. وقلة عدديـة لا أهبة لهـا ولا عتاد في يدها تجابه هذه الحشـود الظالمة الطاغية، إلا رسـوخُ إيمانها وصـادق عزائمهـا، وقوة يقينهـا في الله العلي العظيـم. وللإيمان الراسـخ، والعزائـم الصادقة قـوة لا تقـف أمامها القـوى المادية المتورمة بالغرور وعتو الفجور.

موقف المجتمع المسلم في الحديبية كان موقف قوة مسالمة:

أمـا مشـاورة (الحديبيـة) فالموقف فيهـا بين قـوة أعزها الله لإعـزاز دينه بها وأمدها بنصره على قلـة عددها وضآلة عتادها في وقائـع زلزلـت أقدام الغرور الفاجر الذي تسـربله أحلاس الشـرك وعبيـد الوثنيـة المادية الحمقـاء، وأدارت رؤوس الظلم والطغيان إلـى أقفيتهم، وحسـت حسًـا ترك حشـودهم أشـلاء فـي مناقير النسـور ومخالـب الصقور، ووضعت البقية الباقيـة من طواغيتهم فـي أحجامها المتهاويـة مهانة وضآلة، فكانـوا كالفتات المتعفن في مواطئ الأقدام، فأفنت أشـرافهم، وشتتت جموعهم، وشردت فلولهـم، وانتزعت غـرور الفجور مـن قلوبهم، ومـلأت أفئدتهم بالجبـن والخور والرعـب والهلـع والمهانة، فكانوا فـي حياتهم

(٢٧) الغطارفة: جمع مفرده الغطريف وهو السيد الشريف. (المجلة)

المتهاويـة أشـباحًا خاويـة وعظامًـا نخرة، يمشـون علـى الأرض سـكارى بخمر الكمد المغيـظ والغم الحانـق، لا يعرفون عارفة، ولا ينكـرون دواهـى فيهم فاشـية، حلت بهم الهزائـم المتوالية، فأصابت عقولهم بالشلل وتفكيرهم بالخبل، وتدبيرهم بالخرف، ومكرهم بالوهن.

سمعوا - وهم على ما هم عليه من شتات وذل - أن محمدًا رسول الله ﷺ قادم عليهم في بضع عشـرة مائة مـن أصحابه المهاجرين والأنصار، زائرين للبيت الحرام، معظمين له معتمرين، لا يريدون حربًـا ولا يقصـدون قتالًا، قد سـاقوا هديهـم بين أيديهـم إعلانًا للسـلام والأمان لا يحملون معهم سلاحًا إلا سلاح المسافر الآمن، السـيوف في أغمادها، فجن جنون بقايا الأشباح الخاوية من فلول الفجـور الوثني، وجمعوا أشـلاءهم واسـتصرخوا مَـن حولهم من الأعاريب والأحابيش، وكان رسـول الله ﷺ قد بعث عينًا له بُسـر بن سفيان الخزاعي الكعبي، وكان حديث عهد بالإسلام لم يعرف بـه يومئذ ولم يشـهر اتقاء أذيته إذا دخل فـي جموع القوم ليعرف أحوالهـم وموقفهم من مقدم رسـول الله ﷺ إلـى مكة في أصحابه عمارًا، فذهب بسـر واسـتطلع وعرف، ثم عاد إلى رسول الله ﷺ ينبئُه بما رأى وسمع، فقال له: إن قريشًا قد جمعوا لك الأحابيش وهـم مقاتلوك وصادوك عن البيت، ومانعوك من دخول مكة، وقد

خرجوا معهم العُوذُ المطافيل(٢٨)، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبدًا.

سياسة حكيمة وعزيمة إيمانية لا تقهر

وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة».

ثم قال ﷺ إمعانًا في قصده المسالمة: «مَنْ رَجُلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها» فانتهض رجل وقال: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرًا بين شعاب كثيرة الحجارة حتى خرجوا منه.

ثم قال رسول الله ﷺ للناس: «اسلكوا ذات اليمين» في طريق يخرجهم إلى وسط الحديبية من أسفل مكة، فلما رأت خيل قريش التي كان عليها خالد بن الوليد عجاجة الجيش وعرفوا أنهم قد خالفوا طريقهم خافوا أن يبغت جيشُ المجتمعِ المسلم مكة وقريشها، فركضوا راجعين إلى قريش لتحذيرهم.

---

(٢٨) العوذ المطافيل: وصفان للإبل. والعوذ جمع عائذ وهي التي ولدت. والمطافيل مُطفِل وهي التي لها طفل. (المجلة)

ولمـا بلغ رسـول الله ﷺ مهبـط (الحديبية) عنـد موضع كان يعـرف بثنية المُرار[٢٩] بركت به ناقتـه القصواء، فجعل الصحابة يزجرونهـا ويقولون: حل، حل، فلما لم تقم لزجرهم قالوا خلأت القصـواء، فقال رسـول الله ﷺ: «مـا خلأت، وما هـو لها بخلق، ولكن حبسـها حابس الفيل عن مكـة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة رحم إلا أعطيتهم إياها».

فأيـن يقـع كلام المقداد في هذه المشـورة، وهو بعينـه كلام قيل في وقته ومناسـبته التـي كانت تقتضيه وتتطلبه يـوم قتال (بدر) وقـد تغير الموقف فـي الحديبية عنـه في (بدر) إذ فـي الحديبية كانـت موازين الحق والنـور والهدى في الدعوة إلـى الله قد ثقلت بما وضـع الله فيها من انتصـارات للمجتمع المسـلم هزت أرجاء الآفـاق العربيـة، وقضت قضاء مبرمًـا على عنجهية البـأو الوثني العنيد[٣٠]، وفجور الغرور العتي الذي جللت به الشـياطين كواهل أوليائهم من طواغيت الشـرك المقيت والإلحاد الخبيث، وخفت موازين العتو العنيد المستكبر عند طواغيت الملأ من بقايا أشباح الهزائـم المتوالية، فلم يبق منها إلا خيالات المذلة والهوان، وهي تمشي منكوسة لا تعرف فوقها من تحتها من هول ما أصابها.

(٢٩) اسم موضع: والثنية الطريق بين جبلين. (المجلة)
(٣٠) البأو: الزهو والافتخار. (المجلة)

أمـا في (بدر) يـوم أن قال المقـداد رضي الله عنـه ما يجب أن يقال في وقته ومناسـبته، فقد كان المجتمع المسـلم الناشئ في مهـده الاجتماعي قليـل العدد، فقيد العدة، ليس له من سـلاح إلا إيمانه بعقيدته، وفدائيته لدعوته دعوة التوحيد الخالص لله تعالى، والإصـلاح الاجتماعـي الذي يسـتنزل طواغيت الشـرك من ذرى رواسـي الفجور العنيد المسـتكبر إلى أرض العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الناس وجماعاتهم، وإلى أرض الإخاء المتراحم المتواسـي، مع المسـتضعفين فـي الأرض من المعذبين فيها بشـدائد الحرمان، المسـتعبدين للقمة العيش وهي في أيدي الطغاة مـن أحلاس الكفر الفاجـر، لا يلقونها إلى المسـتضعفين المستعبدين لها إلا إذا سلبوهم الحياة في عزتها وكرامتها.

بهذا التحقيق يظهر أنه لا وجه لذكر مشورة للمقداد في الحديبية:

فالحـق الـذي لا يقبـل التـردد، ولا يجـري وراء الروايات هنا وهناك أن لا محل، ولا وجه لذكر مشـورة للمقداد في (الحديبية) بالصورة التي جلبتها الرواية لاختلاف الموقف بين حالة المجتمع المسـلم الجديـد، وبيـن المشـركين الذيـن أنهكتهـم الحـرب وأضعفت شـوكتهم، وفضت جموعهم، وأفنت طواغيتهم وقتلت أشرافهم، وأذلت من بقي من أشباحهم، لأن الدواعي والدوافع التي دفعت بالمقداد إلى أن يقول كلمته البطولية الشجاعة لم تكن في

(الحديبية) كما كانت في (بـدر) لاختلاف الحال اختلافًا كبيرًا بين الموقفين.

ولم نر أحـدًا من الرواة والمحدثين ذكـر أن أحدًا من الصحابة تكلم في مشـاورة (الحديبية) سـوى أبي بكـر الصديق رضي الله عنه، وسـوى ما قاله ابن حجر في مشورة سعد بن عبادة في (بدر) عند مسـلم أنه وقع عند الطبراني أن سـعد بـن عبادة قال ذلك في (الحديبية) قال ابن حجر: وهو أولى بالصواب.

ولا نرى وجهًا لتصويب ابن حجر، لأن رواية مسلم صريحة بأن مشـورة سعد بن عبادة كانت في بدء المشـاورة للخروج لعير أبي سـفيان، ولم تكن للقتال في (بدر) ولا في (الحديبية)، فترجيح ابـن حجر لما وقع عند الطبراني على صريح رواية مسـلم مجازفة لا تسـتند إلى دليل وبين إسـناد مسلم وإسـناد الطبراني مفاوز لا تجري فيها معاجم الطبراني.

ثـم يقال: ما الداعي إلى أن يكـرر المقداد - كما زعم الواقدي - كلمته التي قالها في (بدر) وفيها الاستشـهاد بالجملة القرآنية مـن سـورة المائدة فـي موقف (الحديبيـة) دون أن تشـتمل على شـيءيخرجها عن إطارها في بدر أو يشـير إلى مناسبتها في موقف (الحديبيـة) كما صنع أبو بكـر الصديق رضي الله عنه في كلمتيه

في (بدر) و (الحديبية) فقد أعطى لكل مقام حقه من المناسبة.

وقد عرف أن مشاورة (بدر) كان المقصود بها استطلاع رأي الأنصار ولذلك تكلموا بعد كلمة المقداد إذ عرفوا أن رسول الله ﷺ يريدهم بالمشاورة، فكانوا حاملي ألوية البطولية والشجاعة والفدائية التي لا ترهب الموت ولا تبالي بأعظم المشقات، فأقروا عين رسول الله ﷺ في موقف كانت تحيط به الأزمات والشدائد من كل جانب، ففرج الله بموقفهم عن المسلمين ضوائق الأزمات، وخاضوا غمرات القتال بقوة الإيمان وصدق العزائم وحب الموت في سبيل الوفاء بعهودهم ومواثيقهم التي عاهدوا بها رسول الله ﷺ، وواثقوه فيها على أن يحموه ويحموا دعوته التي آمنوا بها، فيمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم، بل كان ﷺ أعز عليهم من أنفسهم وأبنائهم، فنصرهم الله نصرًا رددت أصداءه آفاق أرض العرب من سائر أقطارها، مدوية تحمل الشاردين والمتربصين إلى حظائر الإيمان أفواجًا متتابعين، يعطون بأيديهم ما كانوا عنه معرضين.

نموذج من الشدائد التي لقيها المسلمون في سيرهم إلى بدر:

وقد كان من الطبيعي الذي تقضي به العوامل المحتفة بالموقف - كما صورناه - أن يلقى المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ وهم على ما كانوا عليه من قلة في العدد وافتقاد العدة في المراكب

والسلاح والمؤن في سيرهم إلى قتال (بدر)، بعد أن تحتم عليهم ذلك السير لملاقاة أعدائهم المهاجمين لهم في ديارهم بحشود توافرت لها جميع أسباب القوة المادية - شدة شديدة، وأزمات قاسية عصية، ومشقات مضنيات كان النبي ﷺ فيها هو المثل الأعلى صبرًا على لأوائها واحتمالاً لآثارها، لتتأسى به أمته ووارثو أمانة دعوته في مواقف الشدة والأزمات التي ستلقاها في حياتها، وهي حاملة لألوية الجهاد في سبيل نشر الحق والخير والهدى والنور والدعوة إلى الله لإخراج الناس من ظلمات البغي، وتسلط الأقوياء على الضعفاء، واستعباد القادرين للعاجزين من أجل لقمة العيش إلى نور العدل والحرية والإخاء.

فعدد المسلمين كان زهاء ثلاثمئة رجل، معهم سبعون بعيرًا يعتقبونها(٣١)، وكانوا على حالة من الضعف وقلة الزاد والمؤن بعثت في نفس رسول الله ﷺ الإشفاق عليهم والرحمة لهم والرأفة بهم، فدعا لهم حين خرجوا فقال: اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم».

أما عدد أعدائهم المشركين فكان ألف رجل اجتمعت فيهم زعامات قريش وأشرافها، وكان معهم سبعمائة بعير ومائتا فرس، ولهم من مؤن الطعام والسلاح ما بلغ بهم مبلغ الترف والفجور كما تصوره كلمات لعينهم الفاسق أبي جهل إذ يقول في رده على أبي سفيان بعد أن أحرز عيره ونجا بها، فأرسل إلى قريش

(٣١) اعتقاب الدابة: هو التناوب على ركوبها. (المجلة)

رسـوله الثاني يقـول لهم: إنما خرجتم لتمنعـوا عيركم ورجالكم وأموالكـم فقـد نجاها الله فارجعوا، فقال أبـو جهل: والله لا نرجع حتى نـرد (بدرًا) فنقيـم عليه ثلاثًـا، فننحر الجُـزُر[٣٢]، ونطعم الطعام، ونسـقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

روى الإمام أحمد من طريق زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قـال: كنا يوم بدر كل ثلاثة علـى بعير، كان أبو لبابة وعلي زميلي رسـول الله ﷺ، فكانت عقبة رسول الله ﷺ - أي دوره في المشي - فقـال لـه زميلاه إشـفاقًا عليه، وإيثارًا له ﷺ بالراحة من مشـقة المشي: نحن نمشي عنك، فقال لهما ﷺ: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنـا أغنى عـن الأجر منكما» وهـذه دعامة مـن دعامات منهج الرسالة.

وزمالـة أبـي لبابة مع علي لرسـول الله ﷺ فـي اعتقابهم بعيرًا كانت قبل أن يرد رسـول الله ﷺ أبا لبابة من الروحاء إلى المدينة المنورة ليكون على أهلها والحفظ لها.

فلمـا رده جعل مكانه في رفقة رسـول الله ﷺ مـع علي بن أبي طالـب مرثـد بن أبي مرثـد، وزمالة مرثد بن أبي مرثد لرسـول الله ﷺ مع علي ذكرها ابن إسحاق مقتصرًا عليها، ولم يذكر أبا لبابة فقال: كان رسـول الله ﷺ هو وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثـد يعتقبون بعيـرًا واحـدًا، وكان حمزة وزيد بـن حارثة، وأبو

(٣٢) الجُزُر: جمع جزور وهو الدابة تذبح وتقسم. (المجلة)

كبشة، وأنســة يعتقبون بعيرًا، وبما ذكرنا يعمل بالروايتين ويتم التوفيق بينهما.

اختلاف الروايات في حديث المشاورة في قتال بدر:

وحديث المشاورة في القتال ببدر اختلفت فيه الروايات مع الاتفاق علي وقوع المشــاورة ولكن سياقاتها وإسناد المشورة إلى الأشخاص أو الجماعــات هو الذى وقع فيه الاختلاف، وقد بينا أن أصح روايات المشورة سندًا هي رواية البخاري من حديث ابن مسعود.

وهنــاك روايات أشــرنا إليها تذكر مشــورة المقــداد بن عمرو مجــردة عن الاستشــهاد بالجملــة القرآنية من آية ســورة المائدة، وتضيف الاستشــهاد بها إلى بعض الأنصار من غير تعيين لشخص كما في حديث أنس عند أحمد من طريق حميد الطويل، قال أنس رضي الله عنه: استشــار النبي ﷺ مَخْرَجه إلى (بدر) فأشــار عليه أبو بكر، ثم استشارهم فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقال بعض الأنصار: إياكم يريد رســول الله ﷺ يا معشر الأنصار، فقال بعض الأنصار يارسول الله، إذن لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائــدة: ٢٤) ولكــن، والــذي بعثك بالحــق، لو ضربت أكبادهــا إلى بَرْك الغماد لاتبعناك.

فهــذا الحديث كالمتدافع مع حديــث المقداد بن عمرو برواية البخاري، ولم ينزل في درجة الصحة عن حديث البخاري كما يفيده قول ابن كثير: وهذا إسناد ثلاثي صحيح على شرط الصحيح.

وقـد رواه الإمـام أحمد عن أنـس من طريق ثابـت البناني : قال أنس : إن رسـول الله ﷺ شـاور حين بلغه إقبال أبي سفيان ، فتكلم أبـو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقال سـعد بن عبادة : إيانا يريد رسـول الله ﷺ ، والذي نفسـي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْك الغِماد لفعلنا .

وهذا الحديث في صحيح مسـلم ، وقد تمسك به ابن حجر في أن مشـورة سعد بن عبادة لم تكن في قتال (بدر) وإنما كانت في لقاء عير أبي سفيان ، وهذا ظاهر في قول أنس -رضي الله عنه- : إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال إبي سفيان ، وعلى هذه العبارة بَنَى مَنْ رأى أن سـعد بن عبادة لم يشهد (بدرًا) وقد ناقشنا ذلك ، وبينا أن عبارة سـعد بن عبادة في مشـورته لا يكون مثلها في لقاء العير ، لأن ذلك لا يتطلب جهدًا ومشـقة ، وإنما تكون في التعرض للقتال وبعد السفر .

وحديث المشـاورة في قتال (بدر) انتشر في مواقع من البحث لمقتضيات الدواعي والمناسبة ، ونحن نسوقه بإيجاز يجمع أطرافه ويقيد معالمه الأصيلة ليكـون في إطار يحتوي خطوطه المتفرقة ، ويجمعها لتكون صورة موحدة المعالم .

بعد أن سمع رسول الله ﷺ رأي الخيرين أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، ثم سمع رأي المقداد التفت ﷺ إلى الأنصار فقال: «أشيروا علي أيها الناس» وهو ﷺ يريدهم خاصة، ليعرف رأيهم، ويكشف عن عزائمهم في أول موقف متأزم مفاجئ تتقدمه نذر الحرب بلفح أوارها، والأنصار في هذا الموقف كانوا أعداد الناس إذ كانوا نيفًا على أربعين ومائتين، وكان المهاجرون نيفًا على ستين، وإن الأنصار حين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة السبعين بالعقبة، وهي آخر بيعاتهم بمكة قالوا: يا رسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلينا في ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره ومنعه إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليها أن يسير بهم إلى عدو خارج عن بلادهم.

عزائم الإيمان عند الأنصار كما يمثلها رأي زعيمها:

فلما قال ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» وكرر ذلك بعد أن سمع رأي المهاجرين ممثلين في أبي بكر وعمر والمقداد قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: ﷺ «أجل» فقال سعد بن معاذ: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي

بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصَبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء[٣٣]، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله.

وليس في إسناد هذا القول إلى سعد بن معاذ هنا منافاة لإسناده إلى سعد بن عبادة في الرواية السابقة لاحتمال أنهما قد اشتركا في حديث المشاورة، لأنهما كانا زعيمي الأنصار، الناطقين بكلمتهم، المعبرين عن عزائمهم، فسعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، فسر رسول الله ﷺ بما سمع ونشطه ذلك، فقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم ويقول: «هذا مصرع فلان» ويضع يده على الأرض هنا وها هنا، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ.

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري عند ابن أبي حاتم وابن مردويه بسند فيه ابن لهيعة – وهو مضعف عند النقدة – أن رسول الله ﷺ قال ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير، لعل الله يغنمناها»؟ فقلنا: نعم، وخرجنا، فلما سرنا يومًا أو يومين، قال لنا رسول الله ﷺ: «ما ترون في القوم؟ فإنهم أخبروا بمخرجكم» فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال القوم، ولكننا أردنا العير، ثم قال ﷺ: «ما ترون في

(٣٣) صُبرٌ جمع صابر، وصُدقٌ جمع صادق. (المجلة)

قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك، فقام المقداد بن عمرو فقال: إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ (المائدة: ٢٤) فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا مثل ما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ (الأنفال: ٥).

وهذا الحديث إذا كان في ظاهره يتنافى مع موقف الأنصار في الأحاديث الصحيحة التي أظهروا فيها من أول وهلة الشجاعة الفائقة، والبطولة الرائعة والفداء الذي أحاطوا بمعالمه رسول الله ﷺ ودعوته - بتسليمهم أنفسهم وأرواحهم ودماءهم للجهاد في سبيل تحقيق ما عاهدوا الله ورسوله عليه، فصدقوا الوفاء وصدقهم الله بأعظم الثناء - فإنه يحمل على أن بعضًا منهم لم يستطيعوا التغلب على الطبيعة البشرية، وهذا البعض هو المراد بقوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ (الأنفال: ٥).

رواية أخرى لكلام سعد بن معاذ في مشورته:

وأخرج ابن مردويه من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن وقاص الليثي، عن أبيه عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى (بدر) حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس، فقال: «كيف ترون» فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بكذا وكذا، ثم خطب

رســول الله ﷺ الناس، فقال: «كيف تــرون؟» فقال عمر مثل قول أبــي بكر، ثم خطب رســول الله ﷺ، فقال: «كيــف ترون؟» فقال سـعد بن معاذ: يا رسـول الله إيانـا تريد؟ فوالـذي أكرمك وأنزل عليـك الكتـاب ما سـلكتها قـط، ولا لي بهـا علم، ولئن سـرت حتـى تأتـي بَـرْك الغِماد مـن ذي يمن لنسـيرن معـك، ولا نكون كالذيـن قالـوا لموسـى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ (المائـدة: ٢٤) ولكـن اذهب أنت وربـك فقاتلا إنا معكـم متبعون، ولعـل أن تكون خرجت لأمر، وأحـدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فأمضه، فصل حبال من شـئت واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شـئت، وأعطنا ما شـئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سـرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك.

فهذه هي مواقف جمهـور الأنصار وكثرتهم الغامرة في وفائهم وشـدة شـكيمتهم وروعة فدائهـم، وشـجاعتهم وإيثارهم خوض غمرات الشـدائد والأزمـات ليقروا عين رسـول الله ﷺ، كررتها الروايـات الصحيحة الثابتة، وأيدتها وقائعهـم في حياتهم حافين به ﷺ في سلمه وحربه.

فأين يقع الموقف المسـتضعف مـن قلة عبر عنها القرآن بلفظ (فريق) - الذي جاء في حديث أبي أيوب الأنصاري بسند فيه ابن

لهيعة والكلام في ضعفه مشهور - من هذه المواقف العظيمة، والمشاهد المتكررة التي تتجاوب أصداؤها في الآفاق نصرةً لدعوة الحق وحمايةً لرسولها ﷺ .

وقد بينا فيما سبق أن رسول الله ﷺ كان في منهج لقائه لأعداء دعوته - من حشود المشركين في كثرة أعدادهم وتعاظم عدتهم وقيادة أشرافهم - فوق مستوى القيادة السياسية والعسكرية، ومعرفة أحوال العدو وقوته المادية والمعنوية هي أول واجبات القيادات المحاربة، وأهمها، وأدعاها للنصر.

فالنبي ﷺ إذ يعمد إلى الشورى - وهي ديباجة المنهج في رسالة الإسلام - ليستطلع رأي الذين سيقع عليهم عبء هذا اللقاء القتالي غير المتكافىء في القوة المادية التي هي عماد الحروب في الجاهلية - ويلح ﷺ في هذا الاستطلاع ليكشف الأغطية عن مداخل النفوس، ويتعرف على ما تنطوي عليه جوانح أنصاره ليزيد من صرامة عزائم جنده - لا يدفع بجنده إلى خضم المعركة حتى يستوعب أخبار أعدائه، ويحيط علمًا بقوتهم المادية عددًا وعدّة، ومكانًا وزمانًا ليتخذ لكل حالة شكولها ومقتضياتها وملاءماتها(٣٤).

(٣٤) المراد: يتخذ لكل حالة ما يناسبها. يقال: هذا أشكل بهذا أي: أشبه به وأليق. (المجلة)

وكان هـذا هو سـر بعثه ﷺ - أولًا - من يتعـرف له أخبار العير التي خرجوا لملاقاتهـا وهي تحمل تجارات قريش وأموالها، فبعث بسـبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء ليتنطسـا له الخبر عن أبي سـفيان(٣٥)، فذهبا وعادا إليه بالخبر اليقين، ثم بعث عليًا والزبير وسـعدًا في نفر مـن أصحابه ليعلمـوا له علم قريـش وهم يزحفون بحشـودهم إلى (بدر) فذهبوا إلى مسـاقي (بـدر)، وجاءوه ببعض روايا قريش وسـقائهم، فاسـتخبر هـؤلاء الروايا حتـى عرف منهم بلحـن القـول كل ما يجـب أن يعرفه قائد حرب عـن أعدائه، عرف أعداد حشودهم وعتادهم، ومَن مِن أشرافهم كان في قيادتهم، وألقى بذلك كله إلى أصحابه وجنده ليكونوا على بصيرة من أمرهم.

وقد كشـفت المشـاورة في رواياتهـا المتعـددة المختلفة عن قـوة إيمانيـة ادَّرَعَهـا جندُ المجتمع المسـلم، لا سـيما الأنصار، كما كشـفت عن عزائم صارمة ماضية كانت في حركاتها تتخطى حواجـز المـوت لتقف معه موقـف المتطلب له الـذي لا يزورُّ عن مواقعه في سـبيل مكارم الوفاء بالعهـود والمواثيق، ونصرة الحق الذيـن آمنوا به إيمانًا استسـهلوا معه كل مشـقات الحياة متاعبها ومصاعبها وأزماتها.

(٣٥) النطْسُ التأنق، والمتنطس في الاستخبار من يتحصل عليها بلطف. ومنه الطبيب النطاسي. (المجلة)

دهاء أبي سفيان وحذره في قيادة عير قريش التي تحمل أموالها والنجاة بها:

كان أبو سفيان، صخر بن حرب أحد دهاة قريش ورجالاتها الذين تئل إليه ملماتها وكبريات أحداثها، وكان حذرًا يأخذ للمواقف عدتها، وزاد من حذره ودهائه أن كان قائد العير التي خرج إليها النبي في أصحابه ليغنموها إرهابًا لقريش واستردادًا لما اغتصبوه وسلبوه من أموال طلائع الإيمان بمكة.

وكانت هذه العير أعظم قوافل قريش في كثرة أموالها التي بلغت أكثر من خمسين ألف دينار والتي أسهم فيها كل ذي دينار ودرهم في قريش، وكان أبو سفيان كلما قرب من الحجاز في أوبته من الشام ازداد حذره تخوفًا من تعرض المجتمع المسلم لقافلته فيفجع قريشًا في ثرواتها وأموالها، ويقطع طريقها في تجارتها، فجعل يتحسس الأخبار، حتى إذا دنا من مساقي بدر أتته الأخبار بترصد رسول الله ﷺ في أصحابه للعير، فأسرع وضرب وجه العير مغيرًا طريقه إلى الساحل، وترك بدرًا وراء ظهره، وانطلق مسرعًا يبغي النجاة، وكان قد أرسل إلى قريش يستنفرهم ليدركوا أموالهم ورجالهم، فهبت قريش، وأقبلت في أهبتها المستوعبة عددًا وعدة يقودها أشرافها وطواغيت ملئها للحرب، يسوقها إلى حتفها الغرور المسعور، والفجور الكفور حتى نزلت الجحفة، وأرسل إليهم أبو سفيان رسولًا آخر حينما رأى أنه نجا بالعير،

يستردهم عن نفيرهم فأبى عليهم فاسقهم غميز الرجولية أبو جهل بن هشام إلا أن يمضوا لأقدارهم ليلقوا حتوفهم وهم يهوون إلى ظلمات القليب أشباحًا متعفنة، وقال كلمته الفاجرة: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم فيه ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا؛ فامضوا.

ومضت قريش وطواغيتها كما يمضي العبيد المسخرون بسياط القهر والفجور التي ألقتها إليهم أوامر هذا اللعين الفاسق، فنزلت بحشودها بالعدوة القصوى من وادي بدر، وكان النبي ﷺ وأصحابه قد نزلوا بالعدوة الدنيا، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾(الأنفال: ٤٢).

مشورة حباب بن المنذر في منزل جنود الله ببدر وأثرها في المعركة:

وخرج رسول الله ﷺ يبادر أعداءه إلى الماء حتى جاء أدنى ماء من بدر نزل به، فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أهذا

المنــزل منزلًا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قــال الحباب: يا رســول الله، ليس هذا بمنــزل، فامض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».

وأخذ النبي ﷺ برأي الحباب ومشــورته العســكرية السياسية لمــا فيه مــن تحقيق مصلحة المجتمع المســلم الحربيــة باعتباره نقطة من نقــاط التدبير المحكم لخوض المعركة بعد التمهيد لها بما يقوي عزائم جند الحق، ويخضد شــوكة جند الشيطان، ويهز عزائمهم، ويشتت أفكارهم ويربك تدبيرهم، ويشغلهم بالتفكير في الحصول على الماء وهو ضرورة من ضروريات الحياة، لا سيما عند خوض المعركة في جو صحراوي مشتعل بلفحات السموم.

وهذا السياق – الدال على أن رسول الله ﷺ نزل بجيشه حيث نزل على أدنى ماء من بدر، فأشار عليه الحباب بن المنذر بما أشار – هو ما عليه جمهور أهل المغازي والسير.

بيد أن ابن القيم في كتابه (الهدي) ســاقه مســاقًا يدل على أن النبي ﷺ هو الذي بدأ أصحابه بالاستشارة في المنزل، فأشار عليه الحباب بما رضيه ﷺ وأنزل فيه جيشه.

رأي ابن القيم في مشاورة الصحابة في منزلهم ببدر:

قال ابن القيم: وسار رسول الله ﷺ حتى نزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، فقال ﷺ: «أشيروا عليّ في المنزل» فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أنا عالم بها وبقُلُبها، إن رأيت أن تسير إلى قُلُب قد عرفناها، فهي كثيرة الماء عذبة فننزل عليها، ونسبق القوم إليها ونغوِّر ما سواها من المياه.

فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء، فنزلوا عليه شطر الليل، وصنعوا الحياض ثم غوّروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض.

وهذا لون من ألوان تطبيق منهج المجتمع المسلم الذي رسمه رسول الله ﷺ لتقوم على دعائمه حياة هذا المجتمع عملاً بأمر الله تعالى في قوله جل شأنه لرسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ وإظهارًا لمنقبة من أعظم مناقب هذا المجتمع في حياته الاجتماعية، وصفهم الله تعالى بها، فكانت خُلقًا من أخلاقهم وعملًا أساسيًا تقوم عليه أعمالهم في الحياة.

مكانة الشورى في المنهج النبوي وأثرها في تربية المجتمع المسلم:

والشورى هي المقياس العملي لتطبيق دستور المؤاخاة الاجتماعية التكافلية التي عقدها رسول الله ﷺ بين عامة المجتمع المسلم وخاصته وسجلها في كتاب صار وثيقة من وثائق المنهج

النبوي الذي ربَّى عليه النبي ﷺ أمته، وجعله مصدرًا من مصادر التأسي به في قيادة أمته وتوجيهها حتى يكون قادة المجتمع المسلم في مستقبل حياته كلها قائمين على دعائم الشورى التي تجمع رأي ذوي الرأي والتفكير الموفق في المجتمع، وتبعث الطمأنينة في قلوب العامة، فيتوحد الهدف وتجتمع الكلمة على سواء، ويقبل الأفراد والجماعات على العمل في قوة مؤمنة بالحق وعزائم ماضية لتحقيق مقاصد المجتمع المسلم.

وحتى تقوم الدعوة إلى الله على ما يبثه الدعاة من ورثة المنهج النبوي من أصول هذا المنهج وأهدافه التي تعتمد على وحدة الإيمان، ووحدة التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم وجماعاته قولًا وعملًا.

ومشورة الحباب بن المنذر في المنزل الذي أنزل فيه رسول الله ﷺ جيشه، وأخذ رسول الله ﷺ بها، وتزكيته لها بقوله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي» توجب على ذوي العلم والحنكة التجريبية في مواقف الأزمات أن يمحَضُوا القادة النصح، وأن يجهروا بما عندهم من علم وتجربة، كما توجب على القادة أن يتقبلوا الرأي من ذويه، والنصح من الناصحين، وأن ينوهوا بما يرونه محققًا لمصلحة المجتمع ليشجعوا ذوي التجارب علي الجهر بأفكارهم وتجاربهم، ليعرف كل فرد في المجتمع أنه يملك حق الجهر برأيه، والميزان العام لوزن الأفكار والآراء إنما هو صالح المجتمع المسلم، فأينما كان هذا الصالح كان الصواب الذي يجب الأخذ

به، مهما كان شأن صاحب الرأي والمشورة.

وأفراد المجتمع سواسية أمام الحق والصالح العام ما لم يكن هناك أمر أو أمور تقتضي الذهاب إلى خلاف ما يظهر في مجال الشورى.

وقد كان الحباب حصيفًا عاقلًا لبيبًا عارفًا بقدر النبي ﷺ ومقامه من ربه، وما امتاز به من الاصطفاء بالوحي الذي يسدّده ويريه ما لا يرى الناس في أفكارهم وتجاربهم.

فهو رضي الله عنه لم يهجم بمشورته على رسول الله ﷺ دون تمهيد يتعرف به الحكمة في عمل رسول الله ﷺ، وهل هو من قبيل ما اختص به من الاصطفاء بالوحي، فليس لأحد أن يتقدّم عليه أو يتأخر عنه، بل يجب التسليم به والقبول له والاتباع والطاعة، أو هو من قبيل الرأي الاجتهادي الذي يسمح بإبداء غيره من الرأي الذي تؤيده المعرفة التجريبية؟ ولرسول الله ﷺ الرأي الأعلى وراء ذلك.

وإنما تقدم في أدب الاتباع والطاعة إلى رسول الله ﷺ وسأله ليتعرف مرجع عمله في إنزال الجيش حيث أنزله، هل هو من قبيل أمر الله ووحيه، أو هو من قبيل الرأي الاجتهادي في الحرب ومكيدة الأعداء، فأخبره رسول الله ﷺ أنه الرأي والحرب والمكيدة، وهنا أشار الحباب بما عنده من علم وتجربة معللًا رأيه بأسباب رضيها رسول الله ﷺ، وعمل بها فقال: يا رسول الله، ليس هذا بمنزل:

أي بحسب التجارب التي وصل إليها علم المجربين - ثم أشار بالرأي إذ قال: فامض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فنهض ﷺ بالناس من منزلهم إلى المنزل الذي أشار به الحباب: وسرّ ﷺ بذلك، وقال للحباب: «أشرت بالرأي» وعند ابن سعد فنزل جبريل فقال: الرأي ما أشار به الحباب.

ومواقف رسول الله ﷺ في الشورى لا يكاد يحصرها العدّ، وقد دوّن العلماء منها الكثير المفيد، والمشورة في حكمتها التي ذكرنا منها ما سنح للخاطر تزيد من قدر رسول الله ﷺ وتفوقه العقلي والفكري على كل من سواه: فهو بهذه المشورة في غير ما خصه الله به من الاصطفاء بالوحي يضع بشريته في مستوى الكمال البشري الذي خلقه الله عليه، وكان مناط اصطفائه لأعظم رسالات الله تعالى إلى الخلق، ويبعث في مجتمعه المسلم روح المشاركة في الرأي وتحمل المسئولية في عظائم الأمور، فلا يتعاظم أحد بتفكيره من الإصغاء إلى تفكير غيره، ولا يحمل المجتمع المسلم بغير إرادته على الانقياد والخضوع لرأي فرد مهما عظم شأنه بالدعايات التي تحيطه بها شراذم النفعيين، ومن هنا كانت مشاورة النبي ﷺ لأصحابه دروسًا في التربية الاجتماعية

التي تحقق التكافل بين أفراد المجتمع وجماعاته، ففي المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدًا قط أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

قبل رسول الله ﷺ مشورة الحباب بن المنذر لما فيها من العلم التجريبي المحقق لمصلحة المجتمع المسلم، ونهض بالناس حتى أتى أدنى ماء من أعدائه فنزل عليه، وأمر بالقُلُب فغُوِّرت، وأمر ببناء حوض على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا الآنية ليشربوا بها منه.

وتداعى الناس لأخذ مواقف القتال بعد أن استحكمت حلقة المواجهة بين الجمعين، وقال سعد بن معاذ - وكان على حرس رسول الله ﷺ - يا رسول الله، ألا نبني عريشًا تكون فيه ونعدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن تكن الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك قوم ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، وبنى العريش فكان فيه رسول الله ﷺ، معه أبو بكر الصديق لحراسته الخاصة، ليس معه أحد غيره فيه، ووقف سعد بن معاذ متوشحًا سيفه في نفر من الأنصار على باب العريش يحرسونه ﷺ حتى لا يدنو أحد من عريشه.

وفي مسند البزار أن عليًا رضي الله عنه خطب الناس فقال: يا أيها الناس من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أما إني ما بارزت أحدًا إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا للنبي ﷺ عريشًا، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ، لئلا يهوي إليه أحد من المشركين، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهرًا بالسيف على رسول الله ﷺ لا يهوي إليه أحد إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس.

وأقبلت قريش منحدرة، فلما رآهم رسول الله ﷺ في غرورهم الأحمق يتواثبون تواثب الجِنّة من شياطين المردة توجه إلى الله تعالى متضرعًا وهو يقول: اللَّهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحْنِهم الغداة»(٣٦).

ثم دخل رسول الله ﷺ عريشه، مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه ووقف سعد بن معاذ في رجال من الأنصار على باب العريش.

ونزل الناس منازلهم، وساق الشيطان جماعة من فتيان قريش إلى حوض رسول الله ﷺ، وكان في زمرتهم حكيم بن حزام،

(٣٦) هذا الدعاء وغيره من المأثور عن دعائه ﷺ في بدر دليل على أن المسلمين تعرضوا لمكيدة وفرض عليهم القتال. (المجلة)

فَنَهَم بهم جند الله أن يمنعوهم منه قعصًا بالسيوف، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوهم» فما شرب منهم رجل منه يومئذ إلا قتل، غير حكيم بن حزام، فإنه نجا من القتل، بعد أن ذاق من الرعب والخوف والارتياع والهلع ما أذهله عن نفسه، فلما أسلم وحسن إسلامه كان إذا اجتهد في يمينه قال: لا، والذي نجاني يوم بدر.

بدر غزوة الوفاء الأنصاري ومفتاح الفتح المبين:

وكانت هذه الغزوة المباركة - بعظمتها وثقل عبئها، وما وقع فيها من عظائم الأحداث، وما ترتب عليها من نصر مؤزر، وفتوحات، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، ودوي عمّ آفاق الجزيرة العربية، وزلزل أقدام أعداء الله وأعداء رسوله، وأرعب قلوب المتربصين في ثقل عبئها - غزوة الأنصار في وفائهم بعهودهم، وافتدائهم لعقيدتهم عقيدة التوحيد، وحبِّهم لرسول الله ﷺ، فقد كانوا فيها غمرة الناس، وأعدادهم، وقد بذلوا فيها أرواحهم ودماءهم وأموالهم، روى البخاري من حديث البراء بن عازب قال: لقد استُصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكان المهاجرون يوم (بدر) نيِّفًا على ستين، والأنصار نيِّفًا وأربعين ومائتين.

وأخرج البخاري من حديثه أيضًا قال: كنا نتحدث أن أصحاب (بدر) ثلاث مئة وبضع عشرة رجلًا، على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوزه معه إلا مؤمن.

وذكر ابن القيم في (الهدي) تفصيل أعداد من كانوا من جند الله في هذه الغزوة التي فاقت بعظمتها في تاريخ الإسلام كل ما جاء بعدها من الغزوات والفتوحات، فقال: إن المهاجرين كانوا ستة وثمانين، وإن الأوس كانوا أحدًا وستين وإن سائر الناس بعد ذلك كانوا من الخزرج.

وقد أبدى ابن القيم حكمة قلة عدد الأوس من الأنصار، فقال: وإنما قل عدد الأوس عن الخزرج وإن كانوا أشد منهم، وأقوى شوكة، وأصبر عند اللقاء لأن منازلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفير بغتة، وقال النبي ﷺ: «لا يتبعنا إلا من كان ظهره حاضرًا» فاستأذنه رجال ظهورهم كانت في علوّ المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبوا إلى ظهورهم، فأبى ﷺ، ولم يكن عزمهم على لقاء العدو ولا أعدوا له عدة، ولا تأهبوا له أهبة.

تعبئة رسول الله ﷺ أصحابه لخوض المعركة:

وتدانى الناس، وتزاحف الفريقان قبل أن يصفّ رسول الله ﷺ جنده للقتال، وكان ﷺ قد أمرهم أن لا يقاتلوا حتى يأذن لهم، ولكن فجور الكفر وطغيان الغرور الأحمق، وعتو الحقد الحانق استفزت قريشًا في زحفها حتى كانت على أقرب اشتباك من مواقف جند الله.

وكان رسول الله ﷺ قد دخل عريشه فنام، فجعل أبو بكر الصديق وهو يرى العدو يزداد دنوّا من مواقف المسلمين، يوقظ

رسول الله ﷺ من نومه، ويقول له: يا رسول الله دنوا منا، فاستيقظ رسول الله ﷺ، وخرج من عريشه فصفَّ أصحابه، وعبأهم أحسن تعبئة كما في حديث عبد الرحمن بن عوف عند الترمذي، قال: صفّنا رسول الله ﷺ يوم (بدر) فبدرت بادرة منا أمام الصف، فنظر إليهم النبي ﷺ، فقال يردهم إلى الصف ويعدِّلهم في أماكنهم منه: «معي، معي».

وأخرج ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم (بدر) وفي يده قَدَح يعدل به القوم، فمرّ بسواد بن غزية وهو مستنتل عن الصف، فطعن في بطنه بالقدح وقال له: «استو يا سواد» فقال سواد: أوجعتني يا رسول الله وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، فقال «استَقِدْ»(٣٧) فاعتنقه سواد فقبّل بطنه، فقال رسول الله ﷺ: «ما حملك على هذا يا سواد» فقال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

في هذا الإطار التوجيهي برز التدبير المحكم الذي وضع به رسول الله ﷺ الخطوط الأولى لمنهج رسالته ﷺ في التطبيق

(٣٧) أقدني، واستقد من القود وهو القصاص. (المجلة)

العملـي للجهاد القتالي الذي لم يقصد إليه، ولم يخرج مسـتهدفًا له، ولكنه ألجئ إليه إلجاء في أول معركة واجه فيها أعداءه مواجهة لا تكافؤ فيها بين الجمعين، جمع المجتمع المسلم على ما وصفنا حالـه في افتقاده القوة المادية في العدد والعدّة، رجالًا، وسـلاحًا، ومؤنًا. وجمع حشود الطغيان من فجار الكفرة وطواغيت الشرك، وعبيد الوثنية، وهم على ما وصفنا حالهم في التأهب، واستجماع أنواع القوة المادية في الرجال، والسـلاح والمؤن وشراسة الحقد الطاغي، والعتو المحنق المغيظ، واسـتيعاب الأشراف من زعماء مـلأ قريش الذين لـم يتركوا وراءهم سـوى أبي لهـب الذي خلّفه الجبن والرعب، فاسـتأجر مكانه رجـلًا منهم، إلى جانب من كان معهم من الخمـور والجواري العازفات المغنيات ووسـائل الترف الفاجر وتنفج الغرور.

وفـي هـذا الإطار رسـمنا الصـورة التي بـدأت بها هـذه الغزوة العظيمة المباركة، بما كان لها من مقدمات وأسباب ودوافع، وبما كان فيهـا من تتابع أحـداث ووقائع وخطط غيـرت وجه التاريخ، وأدارت مسـيرته إلى آفاق لم يكن له بها عهد، وانتهت بالمجتمع المسـلم إلـى خـوض غمـرات الحـرب، فخاضهـا بقـوة إيمانه، وصارمات عزائمه التي جعلت الموت استشـهادًا في سبيل الدفاع

عن كيانه وعقيدته التوحيدية أحب إليه من الحياة المسترخية المترفة بألوان أحط الشهوات والفجور الوثني البطين المترهل.

غزوة بدر كانت أول مثل تطبيقي عملي لمنهج الرسالة:

وغزوة (بدر) أول وأعظم غزوة في تاريخ الإسلام، جعلها الله مفتاح الفتوحات المتوالية التي نشرت جناحي الرسالة الخاتمة الخالدة على آفاق المعمور من الأرض في مدى زمن لا يتصور فيه الخيال أن تقوم في دائرته دولة، بدأت بفرد من البشر، ليس في يده إلا كتاب منير يدعو الناس جميعًا إلى الله وتوحيده، ويدعوهم إلى إصلاح ذات بينهم، وإلى إقامة العدل، والتواصي بالمرحمة والإخاء والمساواة المتواسية ليحيوا حياة طيبة يظللها الأمن والاستقرار والمحبة.

وإذا بالحياة تشهد بعد جولات من الكفاح الصبور دولة تبسط سلطانها المهيمن على فجاج الأرض ناشرة لواء العدل الرحيم، آمرة بكل خير، ناهية عن كل شر، محددة الحقوق والواجبات للأفراد والجماعات، والشعوب والأمم حاكمين ومحكومين، ليس في دستورها أحد قط فوق القانون.

لقد جعل الله تعالى غزوة (بدر) - كما كشفنا عن جوانبها - طريقًا معبدًا بما كان فيها من تطبيق منهج الرسالة تطبيقًا عمليًا إلى الانتصارات التي حققها المجتمع المسلم بوحدته الإيمانية في

حياته الإنسانية المشرقة المستنيرة التي تخطى بها هذا المجتمع المسلم حواجز الزمن والمكان في تطبيقه المنهج النبوي تطبيقًا متوائمًا مع أطوار الحياة المادية والروحية والفكرية والاجتماعية في الأمم والشعوب.

والذي يمعن النظر في مقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة ونتائجها على الوجه الذي رسمناه يدرك ما كان في سياسة النبي ﷺ كما رسمها منهجه في رسالته من حكمة بالغة، وقوة إيمان قاهرة، وتدبير محكم، وعزيمة حازمة، وإرادة صادقة، ورحمة سابغة، وعدل على نفسه وأقرب المقربين إليه، وتضرع إلى الله مع صدق التوكل عليه، ومشاورة لأصحابه ومشاركة لهم في مواقفهم، وأسوة لهم في الصبر والمصابرة، والعفو الصفوح، وتشجيع لهم في مواقف البأساء، وتطول في الإحسان لمن أحسن منهم، واستغفار لمن هَفَا، وإقالة لمن عثر، وإرشاد لمن اشتط، وتلطُّف بمن سها أو غلط من كل ما تضمنه منهج رسالته من معالي الأمور ومكارم الأخلاق وعظيم منازل التربية التي كان ﷺ ينزل فيها أصحابه، ليعدهم للقيادة من بعده إعدادًا نفسيًا، لينهضوا بأعباء الوراثة في إصلاح الإنسانية.

أقبلت حشود الشرك في كثرتها الطاغية تجرر أذيال الغطرسة المختالة تحادّ الله ورسوله، ولم يكن يدور بأخلدتها أنها جاءت

لتحفر قبورها بأظلافها وتسعى إلى حتفها بأرجلها، في أهبة حربية وعدة قتالية أغطشت أبصارها وأعمت بصائرها، فلم ترَ أمامها في جند الله إلا أنهم (أَكَلَةَ جَزُور) كما قال فاسقهم غميز الرجولية، ولعين السماء والأرض أبو جهل بن هشام، وهو يقودهم إلى نهايتهم السيئة بزعامة شيخه ومعلمه إبليس، وقد أعماه الحقد الكفور فلم يبصر في جند الله عزائمهم الإيمانية الصارمة التي أرهص إليهم بها متنطّسهم عمير بن وهب، وقد أرسلوه متجسسًا ليحزر لهم جند الله عددًا وأهبة، ويعرف لهم إن كان لهم كمين أو هم كما يظهرون في قلة عددهم، فجاءهم جاسوسهم بيقين الخبر، وقال لهم: لا أكمنة ولا عدد وراء ما ترون، ولكني رأيت نواضح يثرب تحمل إليكم الموت الناقع(٣٨)، والبلايا تحمل المنايا، لا يُقتل منهم رجل حتى يقتل منكم رجل مثله، قوم ليس لهم مَنَعة إلا سيوفهم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فَروا رأيكم.

وقد قصّر عمير في وصفه كتائب جند الله، ولم يبلغ المدى فيما وراء ما تراه الأبصار الكليلة، لأنه لم يكن يرى سوى ما يراه قومه من أسودة الرجال، وغمّي عليه ما تحمل هذه الأسودة من عزائم الإيمان الصوارم، إذ لم يكن له إلا إدراك أمثل رجل من قومه، فأخبرهم بما رأى ببصره ودهائه الوثني الأغطش.

(٣٨) النواضح: الإبل التي يستقى عليها الماء، المجلة.

والقلـة المؤمنة لم تخرج لقتال تقصـده ولا كانت تتوقعه، أما الكثرة الفاجرة من حشـود الكفـر فإنها خرجت بطرًا ورئاء الناس للصـد عن سـبيل الله في حرب تأهَّبت لها بـكل ما تملك من عدد وعـدة لتسـتأصل شـأفة المجتمع المسـلم، ولتقضـي على دعوة التوحيـد والإصلاح التي جاء بها محمد ﷺ ليخرجهم من ظلمات الشـرك وأوحـال الوثنية إلى نور الإيمان بـالله الواحد الأحد، وإلى معرفته بكمال ألوهيته وعدله بين خلقه.

ولكن فجار الشـرك غصّوا بهذه الدعـوة الإصلاحية الكريمة، فأقضَّت مضاجعهم وعتوا عن أمر ربهم عتوًا شـديدًا، واسـتكبروا عن قبول الحق والهدى، وقابلوا الدعوة بالصَّلف والظلم والطغيان تخوفًا على وثنيتهـم المادية البليدة أن تنهار وينهار معها مجدهم الكفور، وشركهم الغبيّ الجهول.

والوثنية والشـرك همـا عصام سـلطانهم على المسـتضعفين فـي الأرض الذين يلتفون حولهم تلمظًا لفتات متعفن يتسـاقط من أشداقهم في تجشؤ خبيث منكر.

وكم بين من خرج ليسـترد حقًا منهوبًـا ويحمي حوزة منتهكة داعيًا إلى الله وتوحيده وتحرير الإنسانية من الظلم الفادح، وإقامة موازين العدل والرحمة والإخاء والمحبة؟

وبين من خرج أشرًا وبطرًا ليقضي على الحق والخير والهدى، بسـفك الدماء الطاهرة بغيًا وعدوًا وهو منغمس في ترف الشـرك ومخازي الوثنية.

رعاية الله لجند دينه المجاهدين في سبيله:

أولئك جند الله وأنصار دينه، وكتائب رسالته، وحماة دعوته الذين صنعهم الله على عينه، ورباهم سيد الخلق محمد ﷺ بمنهاجه الدستوري، ليعدّهم قادة للإنسانية إلى آفاق العدل والإخاء المتواسي، والمحبة المؤْثرة، ووعدهم على لسان رسوله ﷺ إن هم أخلصوا واستقاموا في سلوكهم على منهاج النبوة الخاتمة واعتصموا بالصبر والتقوى أن ينصرهم على قلة عددهم وضعف عدتهم، فحقّق لهم ما وعدهم إذْ وفوا بشرطه من النصر المؤزر، وأخبرهم بذلك ليؤنسهم حتى يستديموا الوفاء بالتمسك بمنهج دستورهم، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (الحج: ٤٠ : ٤١)، وقال لهم مخاطبًا إعزازًا لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

(محمد: ٧).

أما أهل العتوّ وفجور الكفر الذين خرجوا من ديارهم تحيط بهم لعنات الله ومساخطه فهم جند الشيطان وعبّاد الأحجار، الذين اتخذهم إبليس أحلاسًا لمراكبه، ومطايا لحقده على كل خيّر يعرف الله بجلاله وعظمة ألوهيته، متعبدًا لوحدانيته، متذللًا لسلطان عزته، كما اتخذهم -أيضًا- قوالب يصب فيها حسده واستكباره

فـي الأرض، ليجعل منهم وكرًا لمفاسـد الحيـاة وضلالاتها، وقد أوعدهـم الله بخزي الهزيمة والذل والهوان فـي الدنيا، وبالعذاب الشـديد في الآخرة، فقال تعالى يحرض المؤمنين على قتال هؤلاء الفجرة: ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٤).

وقـد أكـرم الله المؤمنين فأنجز لهم ما وعدهـم، وحقق وعيده للمشـركين، فأذلهم وأخزاهم خزيًا دخل معهم في قبورهم ليكون نكالًا لهم فوق ما يعانون من شـدائد العـذاب، وصحب من تفلّت منهم من سـيوف الحق إلـى ظلمات مخابئهم في خـدور بيوتهم، وهـم يرتعدون رعبًا مـن هول ما رأوا في معارك المجتمع المسـلم معهم من نصره المبين، ثم وسـم جباههم بميسـم العار والهوان، ونكـس رءوسـهم كأنمـا لم يكـن لهم أعنـاق تحملهـا، وألصق معاطسـهم بالرغام[٣٩]، وسـوّد وجوههم بقتار الخـذلان، وباءوا بالحسرة والخسران بعد بَأْو الغرور والاستكبار.

لقـد خـرج النبـي ﷺ بمن خـرج معه مـن أصحابـه، وكانت كثرتهم من الأنصار، لا يريد قتال أحد، ولم يكن ﷺ قد استوعب أصحابه، ولكنه ﷺ خرج بمن كان شـاهدًا مجلسه إذ أخبرهم أنه يريـد عير أبي سـفيان وفيها أموال قريش، لعـل الله يغنمناها ولم

(٣٩) جمع مَعْطِس وهو الأنف. (المجلة)

يخــرج معه مــن أصحابه إلا مــن كان ظهره حاضــرًا، وأبى ﷺ أن يستأني بمن كان ظهره غير حاضر.

دوافع خروج النبي ﷺ في هذه السفرة:

وخرج ﷺ على غير شــيء من أهبة الحرب والقتال، ولم يكن يــدور بخَلَد أحد من أصحابه أنــه ﷺ يلقى حربًا وقتالًا في خَرْجته هذه، وأنهم ظنوها كخرجاته الســابقة التي خــرج فيها إلى بُواط، وودّان، والأبواء، والعُشَيرة، متعرضًا لعير قريش، منذرًا، ومحذّرًا لهم أن يمروا بتجاراتهم على مدينته آمنين مطمئنين.

وليســتردَّ منهــم ما يمكن اســترداده مــن أموال نهبوهــا ظلمًا وعدوانًــا من أصحابه في مكة، وهم مســتضعفون فيها بين الطغاة الظالمين من طواغيت ملأ قريش وعتاتها وفجّار كفرها.

وليرهبهم، ويريهم قوة مجتمعه المسلم في تركيبه الاجتماعي الجديــد، حتــى يدخل في قلوبهــم الرعب ويعلمــون أن المجتمع المســلم الذي كانوا يضطهــدون طلائعه المســتضعفين بمكة لم يكن هو المجتمع المســتضعف الذي عرفــوه من قبل الهجرة، بل هو مجتمع أصبح بعد الهجرة مجتمعًا قويًا بعدده وعدته، وإيمانه ووحدتــه الإيخائية[٤٠] التي جعلها رســول الله ﷺ أصلًا من أصول تركيبــه الاجتماعي التكافلي المتواســي في ظل دســتور المؤاخاة

(٤٠) يقولون: آخاه جعل له أخا، وآخى بينهما جعل كل واحد منهما أخا للآخر. (المجلة)

التــي عقدها بين أفراده وجماعاته وســجلها دســتورًا له في كتاب جامع محفوظ.

وهو بهذا التركيب الاجتماعي الجديد يســتطيع أن يردّ عليهم كيد أعدائه في نحورهم، وأن يكيل لهم بكيلهم في رد اعتدائهم، ويســتطيع بقوته المادية والمعنوية المســتمدة من قــوة إيمانه أن يكسر شــوكتهم، ويرعبل جموعهم[٤١]، ويغمز قناتهم، ويجابه قوتهــم المتورمة ببثور الغرور الفاجر بقــوة أصيلة أعظم وأجلّ من قوتهم.

تسامع رســول الله ﷺ، وهو مع القلة المؤمنة من أصحابه التي خرجــت علــى غير أهبة واســتعداد لحرب أو قتال بزحف حشــود الظالميــن الطغاة إلى مدينته، فلم يغيّر من موقفه وعزيمته شــيئًا، بــل مضى قُدُمًا، وجلّى الأمر لأصحابه ليكونوا على بصيرة من أمر مسيرهم، وأخبرهم أنه خرج بهم لملاقاة العير، لا يبغي قتالًا، ولا يقصد حربًا، ولكن العير فاتتهم، وها هي ذي قريش مقبلة بحدِّها وجدِّهــا وخيلائهــا وأهبتهــا فــي العدد والعــدَّة والمؤن والســلاح يقودها أشــرافُها طغاةُ الملأ فيها وزعماؤها وشياطينها وطواغيتها يســوقهم الحقد الأسود، ويدفع مسيرهم الغيظ المحنق، يحادون الله ورســوله ويريدون استئصال شــأفة المجتمع المسلم في جولة

(٤١) المراد: فرق جموعهم، وأصل الرعبلة تقطع الشيء قطعا صغارا. (المجلة)

ربما لا تحين لهم مثل فرصتها في تجمعهم وحردهم، واستعدادهم لحرب مسعورة تأكل الأخضر واليابس.

لقد كان من السـهل المتاح لرسـول الله ﷺ أن يبعث إلى من بقـي بالمدينة من أصحابه، وهم كثرة من المهاجرين والأنصار، لا يقلـون في قوة إيمانهم ومضاء عزائمهم وشـجاعتهم وحبهم لرسول الله ﷺ وافتدائهم له بكل ما يملكون من أرواح وأموال، وإخلاصهم لدعوته وحمايتهـا والدفاع عنها عن إخوانهم الذين صحبـوا رسـول الله ﷺ فـي خَرْجته لملاقاة العيـر، ثم فاجأتهم الحـرب فـي أهبة غيـر متكافئـة، ولكنه ﷺ لم يفعـل من ذلك شيئًا.

بل وضع ﷺ بموقفه الذي مضى عليه قدمًا أمته في مستقبلها علـى طريق منهجه في رسـالته الـذي ينبغي لها أن تتمسـك به فـي حياتهـا، وأن تطبقـه عمليًـا في جميـع مواقفهـا، لتتحمل مسئوليتها كاملة في قيادة الإنسانية وتبليغ الرسالة ونشرها في الآفاق مهما تكن النتائج والعواقب.

وبلغه ﷺ دنو حشود قريش من (بدر)، فنهض فيمن معه من القلة المؤمنة لملاقاتهم لا يثنيه عن عزيمته ما تحمّل في سـفره

من مشـاق ومتاعب تنوء بها الرواسـي الشـامخات، وما تحمّل أصحابـه من قلة الزاد والمؤن والمراكـب، وما هم قادمون عليه وملاقوه من حرب ضروس، وقتال مرير، ينتزع الأرواح ويسفك الدماء، ويرمل النساء، وييتم الأطفال، ويغنم الأموال.

وقد وضع ﷺ لأمته في هذه المرحلة من تطبيق منهج الرسـالة قاعـدة أن القائـد ينبغـي له أن يـدرس بدقة واسـتفاضة في طاقات إمكاناتـه مواقـف عدوه، ويتعـرّف حاله، ما ظهر منهـا وما بطن، ويستكشـف قوة عدوه ما وسعه البحث والتنقيب ليعرف جوانب هذه القوة حتى يتخذ لكل حالة لبوسـها، ولكل موقف ما يناسبه، وهـذا من أدق أسـرار المعـارك الحربية، وأهم واجبـات القيادات السياسية والعسكرية.

وخطط الحرب المرسـومة على هذا الأساس من العلم المتعمق المحيـط بحال العدو في قوتـه المادية كفيلة أن تعوِّض النقص في القوة المادية من مدخرات القوة المعنوية، وهي أوفر ما تكون عند المجتمع المسـلم، لأنها ترتكز علـى قوة الإِيمان وبطولة الفداء، وتعمّـق التفكيـر الذي يجعـل من هذه القـوة المعنوية قوة تسـد الثغرات في القوة المادية، بشرط إحسان استخدام القوة المعنوية في مناسباتها.

وقد كان هـذا المنهج هو التطبيق العملي في مواقف المجتمع المسلم، ومعاركه المنتصرة، مع الفروق الهائلة في إعداد الحشود المحاربة.

الحزم في تطبيق منهج الرسالة كان هو العامل الفعال في تحقيق النصر:

ونظرةٌ في موقف الجيوش الإسلامية أمام حشود الأعداد الهائلة أكبر شاهد على أن التطبيق الحازم لمنهج الرسالة كان هو العامل الفعال في تحقيق النصر لجيوش الإسلام في أكثر وقائعها التاريخية.

وذلك واضح في معارك المجتمع المسلم مع حشود أكبر دولتين حاربتهما جيوش الإسلام، هما دولتا الفرس والرومان، ثم زحوف التتار الوحشية والصليبية المتكالبة المتعصبة.

والتاريخ المحقق يذكر أعداد كتائب الإسلام، ويذكر إلى جانبها حشود أعدائهم، فلم تبلغ قط أعداد كتائب الإسلام نصف أعداد جيوش أعدائهم، ولكن التطبيق المحكم والعزائم الماضية والشجاعة البطولية التي ظهرت على أيدى قادة جيوش الإسلام وعلى أيدى أبطال الكتائب الإسلامية كانت هي العوامل المحققة للنصر.

وفي وقائع خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص وأضرابهما في صدر الإسلام، ووقائع عين جالوت وحطِّين في التاريخ الوسيط للإسلام أكبر شاهد على أن التزام تطبيق المنهج النبوي بما فيه من قوى معنوية تأصَّلت على وحدة الإيمان وفداء العقيدة، أجل وأعظم من القوى المادية، بل إن القوة المعنوية هي في الحقيقة

القــوة التي أخذت بزمــام النصر ووضعته في أيــدي قادة المجتمع المسلم.

وهكــذا كان صنيع رســول الله ﷺ في أول معركــة تلتقي فيها القلــة المؤمنــة بمنهجهــا الإسـلامي بالكثــرة الكافــرة الفاجــرة بغرورهــا وطيشــها الأحمق هو الأســاس فــي الانتصــارات الرائعة المتوالية التي حققها المجتمع المسلم في معاركه مع أعدائه، لأن المنهج النبوي كان هو المفتاح أمام الفتوحات الإسـلامية ونشــر الرســالة في أكمل صوره عقيدة وتعبدًا وأنظمة سياسية وعسكرية ومعاملات اجتماعية، وتربية ســلوكية؛ مما كان له أعظم الأثر في سرعة نشر الرسالة الخالدة.

وقــد ذكرنا فيما ســبق صنيع رســول الله ﷺ إذ بلغــه دنوّ عير أبي ســفيان من أرض الحجاز وهو آيب بها من الشام، فبعث رسول الله ﷺ مــن يأتيه بخبر هــذه العير، فجاءته الأنبــاء عنها بورودها ميــاه (بــدر)؛ ولكن أبا ســفيان قائد العير كان رجــلًا دهيًا حذرًا، يكثر التحسّــس خوف التعرض للعيــر، وفيها أموال كثيرة ورجال قليلــون، وكانــت العيــر قد جمعت أمــوال قريــش فقرائها وذوي الثراء فيها حتى بلغت زهاء خمســين ألف دينار، ولم يبق فيهم ذو دينار أو درهم إلا بعث به في هذه العير.

وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في أصحابه للتعرض له

ولعيره، فأسـرع وضرب وجه العير مخالفًا طريق السابلة وساحل بها فنجا[٤٢].

هـذا موقف من مواقـف الحنكة القيادية، وقفه رسـول الله ﷺ ليكون سطرًا في المنهج التربوي تقرؤه الأمة لتعمل به في حياتها المستقبلة.

وهو موقف اسـتهدف التعرف على حال العدو في سيره، وحله وترحاله، وحاله في عدده، وما معه من أموال ورجال وسلاح.

وكان أبو سفيان إذ عرف بخروج النبي ﷺ في أصحابه للتعرض لعيـره قد أرسـل إلـى قريش يسـتنفرها لتدرك أموالهـا، ونهضت قريش على الصعب والذلول موعبة، يقودها أشـرافها متأهبة بكل ما تملك من اسـتعداد وأهبة، وسـارت بعددهـا وعتادها، ومؤنها ومراكبهـا من الإبل والخيول، معها أسـلحتها وخمورها ومعازفها وجواريهـا، يسـوقها غرورهـا وأحقادهـا، وصلفهـا وعنادهـا، وفجور كفرها وعتو شـركها وسـعار وثنيتها، ولم تأبه برسالة أبي سـفيان الثانيـة التي بعث بهـا إليها يخبرها أنه نجـا بعيره وأحرز أموالهـم، وطلب إليهم أن يرجعوا، ولكن قريشًـا بقيادة فاسـقها غميز الرجولية أبـي جهل فرعون هذه الأمة ركبها الغرور فأبت أن ترجع عن مسـيرها، وصمّمت على أن تحضر موسم (بدر) ترائي

(٤٢) الطريـق السـابل: هـو الطريـق المعهود أنه سـبيل، و(سـاحَل) سـار بجوار الساحل، وهو هنا ساحل البحر. (المجلة)

العـرب بقوتها المادية لتمـلأ قلوبهم بهيبتهـا ، وخضعت قريش وأشـرافها لقهر طاغوت بنـي مخزوم أبي جهـل يقودها كما يقاد الجمل المخشـوش ، وتوارت عقول عقلائها وراء حجاب العصبية الفاجرة .

وأقبلت قريش بصلفها وغطرسـتها ميممة مياه (بدر) لتعسـكر بحشـودها عليهـا ، ونـزل رسـول الله ﷺ بأصحابه حيـث أنزله الله بمشورة صاحبه الحباب بن المنذر ، وكان الحباب من ذوي التجارب والحنكة والمعرفة بمواطن الأرض التي التقى فيها الجمعان .

وخـرج ﷺ ومعه أبو بكر الصدّيق ، ليـس معهما أحد ليتعرف بنفسـه أخبـار أعدائه الزاحفين علـى بلده ومدينتـه ومجتمعه في جنـون مـن الحقد والطغيان ، فعرف ﷺ منـزل قريش الذي نزلت به ، وعاد إلى معسكر أصحابه وأخبرهم بما علم .

قال ابن إسـحاق : ثم ارتحل رسـول الله ﷺ حتى نزل قريبًا من بـدر ، فركب هو ورجل مـن أصحابه ـ قال ابن هشـام : هو أبو بكر حتى وقف على شيخ من العرب ـ قال ابن هشام : يقال لهذا الشيخ سـفيان الضمري ، فسـأله رسـول الله ﷺ عن قريش ، وعن محمد وأصحابـه ، وما بلغه عنهم ، فقال الشـيخ الضمـري : لا أخبركما حتـى تخبرانـي ممـن أنتمـا ، فقـال رسـول الله ﷺ : "إذا أخبرتنا أخبرنـاك" فقال الشـيخ الضمـري : أوذاك بذاك ؟ قـال (نعم) قال

الشيخ الضمري: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا، وكذا، ـ للمكان الذي به رسول الله ﷺ أي المنزل الذي أنزل به أصحابه ـ وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به قريش ـ فلما فرغ الشيخ الضمري من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: "نحن من ماء" ثم انصرف عنه، فجعل الشيخ الضمري يقول لنفسه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ وظاهر أن جواب رسول الله ﷺ من المعاريض الموفّقة في براعته ﷺ البيانية.

وقد كان ﷺ قد تعرف على حال أعدائه بشيء من التفصيل الذي يقف به على مدى قوتهم المادية من عدد وعدّة وعتاد، ويقف على من كان فيهم من أشرافهم وطغاة ملئهم الذين ساقتهم أقدارهم إلى نهاية حياتهم، فبعث ﷺ نفرًا من أهل الجد والشجاعة والبطولة من أصحابه، ليعرفوا له حال نفير قريش، فذهبوا حتى جاءوا ماء (بدر) فأصابوا على الماء بعض روايا قريش وسُقَّائها، فأخذوا منهم من كان عنده يقين الخبر وأتوا به إلى معسكر المسلمين، ورسول الله ﷺ قائم يصلِّي، وقد حاول الصحابة أن يستخرجوا من الروايا والسقّاء أخبار مجتمع أعدائهم(٤٣)، فلم يتم لهم ذلك، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، وتولى بنفسه وحكمته

(٤٣) السُّقاء جمع ساقي، والروايا جمع راوية. (المجلة)

وحسن سياسته استطلاع ما عند الروايا والسقّاء من أخبار قريش على ما سقناه فيما تقدم.

حكمة القيادة في تعرف أحوال العدو:

وفي هذا الموقف جانب مهم من جوانب منهج الرسالة يمثل الحكمة القيادية التي ينبغي أن تكون متوافرة عند كل قائد في موقع من مواقع القيادة، ولا سيما مواقع الجهاد القتالي أو السياسي، ليكون موقف المسلم دائمًا على مستوى موقف أعدائه في أقل المعايير الضامنة للنصر.

ونهض رسول الله ﷺ بأصحابه وأنزلهم منزلًا أدنى إلى ماء نزلت عنده حشود قريش، ثم أمر ﷺ بتغوير القُلُب فغوّرت وغاض ماؤها، وأمر ببناء حوض على القليب الذي نزل عليه وملئ الحوض ماء وقذفت الآنية ليشرب بها جند المجتمع المسلم، ثم دخل ﷺ إلى عريشه ومعه أبو بكر الصديق، ليس معه أحد سواه شاهرًا سيفه، ووقف على باب العريش سعد بن معاذ في نفر من قومه أنصار الله وحماة رسوله ﷺ لحراسته خشية أن يهوي إليه أحد من أعدائه.

وتدانى الجمعان بعد أن عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه، وعَبَّأهم أحسن تعبئة ورجع إلى عريشه لإدارة المعركة، وقام ﷺ يصلي ويتضرع ويبتهل، ويدعو ربه متذلّلًا لجلال عظمته مستنزلًا نصره، يهتف داعيًا في خشوع العبودية، وهو يقول في دعائه:

"اللهــم أنجز لي ما وعدتنــي، اللهم نصرك، اللهــم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض".

وألــح ﷺ على ربه في الدعاء وقد غمرتــه في موقفه المتضرع مشاهد العبودية المطلقة محفوظة بأنوار العظمة الربانية، ومجالي الكبريـاء والجـلال الإلهـي الذي ذابـت تحت قهـر عظمته قوى البشـرية ومعالمها وآثارها، وقد تسـامت فيـه روحانيته ﷺ حتى بلغت من القرب الأعز مقام قاب قوسين أو أدنى.

وسقط رداؤه ﷺ عن منكبيه والصديق أبو بكر من ورائه يلتزمه، ويسـوّي عليه رداءه، وقلبه رضي الله عنه يعتصر إشفاقًا عليه ﷺ، وهو يرى ما بلغة في مقام مناجاته ربه ضارعًا متذللًا، خائفًا راجيًا، مما تعجز الأقلام والألسـنة أن تحيط به خبرًا في تصويره والتعبير عنــه لتوفيه وصفه في واقعــه من الوجود، فلم يملـك الصدِّيق في هذا المقام إلا أن يقول بعلم اليقين: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك(٤٤)، فإنه سينجز لك ما وعدك.

وهــذا موقــف تزلزلت فيــه أقدام الراســخين في علــم اليقين، وتحيّــرت في جنباته عقول العالمين، ومن هنا قال بعض العلماء: كيــف يكــون الصدّيق وهو قطرة مــن غيث المقــام المحمّدي في موقف المناشد لرسول الله ﷺ، المذاكر له أن الله سينجز له وعده

(٤٤) المراد يكفيك بعض هذه المناشدة. (المجلة)

بالنصـر ؟ ورسـول الله ﷺ يعلم بعيـن اليقيـن أن الله تعالى وعده نصره، وأنه سينجز له وعده.

وهـؤلاء يعلِّلون ذلـك برقة قلـب الصديق رضـي الله عنه، وشدة حبه لرسول الله ﷺ وإشفاقه عليه، كما حكاه السهيلي في روضه عن قاسم بن ثابت.

وقد جانب التوفيق بعض المحجوبين بحجاب العلم في بيانهم لإشفاق الصدِّيق على رسول الله ﷺ، فبينه بعضهم بعبارة لا تتسم بشـيء من مظاهـر الأدب اللائق بمقام النبـوة المحمدية في مقام يعزّ فيه التعبير المعبّر عن خلجات الحياة في موقف لم يتكرر أبدًا في تاريخ الرسـالات الإلهية، ومحال أن يتكرر في تاريخ البشـرية وأحداثها.

وذلـك كالذي قـال بعضهم في بيـان الإشـفاق الصديقي: أي (لِمَ) تتعب نفسـك هـذا التعب والله قد وعـدك بالنصر؟، ونعوذ بالله من زلة أقلام العلماء؛ ألمحمد سيد المرسلين وأعلم العالمين برب العالمين يقال: (لم)، وأنّى لهذه الأداة الاستفهامية الخارجة عن طورها في أداء معناها أن تجد لها موقفًا في أسـلوب الإشـفاق الصدِّيقـي في مقام الشـهود المحمدي؟ ليت من لـم يكن يعرف سكت، ومن عجز عن السباحة نأى بنفسه عن الخوض في غمرات السابحين؟

وقد وقف الإمام أبو بكر بن العربي عند يقين علمه فيما حكاه عنه تلميذه السهيلي في روضه، فقال: كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف وهو أكمل من مقام الرجاء الذي كان فيه الصدِّيق رضي الله عنه لأن لله أن يفعل ما يشاء، فخاف رسول الله ﷺ أن لا يعبد الله في الأرض بعدها، فخوفه ذلك عبادة.

والذي تتحلب إليه سوانح الخواطر في إدراكنا فيما يمكن الوصول إليه من الحقائق في هذا الموقف: أن رسول الله ﷺ كان وهو يتضرع متذللًا إلى الله في خشوع شهد فيه كبرياء جلال الله، وقد تمثل له أصحابه في قلَّة عددهم وعدّتهم وفي أيديهم الحق والهدى والنور والخير يدعون إليه فجّارَ الشرك والوثنية من طغاة ملأ قريش وغوغائهم، وقد جاءوهم بقواهم المادّيّة من الرجال والسلاح والمؤن بما يفوق ما كان عليه جند المجتمع المسلم أضعافًا مضاعفة، وهذا وضع بمقتضى الطبع البشري ووسائل الحياة المألوفة بين الناس لا يمكن أن يتحقق معه نصر لهذه القلة المؤمنة، فوقف رسول الله ﷺ بين يدي ربه متضرعًا يطلب مددًا فوق أمداد المادة التي تتخايل بها قريش في فجورها وغرورها.

وهكذا كان موقف رسول الله ﷺ في مقام العبودية المطلقة الذي تذوب فيه خصائص البشرية حتى لا يبقى لمظاهر العبودية

البشـرية شيء تردّ إليه أسباب ما يرجى أن يكون من فيض الرحمة الغامرة.

وهنـا لا يبقـى للعبـد شـهود لتعبداته مهمـا كانـت ضروبها وأنواعها، وإنما يبقى له مظهر الاستسـلام الضارع لسيده، وكأنه مسلوب الرغائب والإرادات، والمحاب والمكاره، بل يصير نقطة فـي خـط القضاء الإلهي تنسـاب فيها مـرادات الله ومشـيئاته في مجاري الأقدار، نافذة مبرمة.

فالرحمـة والنقمـة والرضـا والغضـب تجليـات متمازجة في وحـدة من غيـث الربوبية، لا تناقـض بينها هناك، وهـذه الوحدة المتمازجـة بالمتناقضات في نظر العقل هي التي يراها محمد ﷺ فـي مقام العبودية المطلقة، وهو لا يدري ما ينزل من سـمائها إلى كـون التدبير، فإذا ارتقى إليها من مقـام عبوديته المطلقة كان في مشهدها كأنه ذرة من ذرات الوجود، تراوحها الأقدار وتغاديها بما لا يعلم مسـتقرها ومسـتودعها في هذه المراوحة والمغاداة إلا الله العليم الحكيم.

لا خوف ولا رجاء في مقام العبودية المطلقة وإنما هو إسلام وتسليم:

كذلـك كان رسـول الله ﷺ في مناجاته الضارعـة بين يدي ربه في مشهد جلاله حيث لا خوف ولا رجاء، ولكن عبودية مطلقة، لا تشهد من الكون إلا أنها ذرة من ذرات وجوده، تقلبها رياح الأقدار

بما جرى ويجري به الغيب المحجب عن ذوي الشهود النظري من خاصة المقربين، ولعلّ موقف الشهود النبوي هو المعبر عنه تلميحًا بعين اليقين ويقابله شهود الخاصة المعبر عنه بعلم اليقين، وبين مقامي عين اليقين، وعلم اليقين ما بين مقامي علم العالِمين، وشهود المشاهدين، والله تعالى محيط بما كان وما يكون.

أما الصدِّيق رضي الله عنه في موقفه وهو يبدي إشفاقه على رسول الله ﷺ ويبشره بأن الله تعالى منجز له وعده، فكان في مقام علم اليقين، وهو مقام الإيمان الراسخ واليقين العليم، وهو مقام العلم بالله تعالى ومعرفة سننه العامة والخاصة، وآياته الكونية والتنزلية.

فالصدِّيق يعلم يقينًا أن الله وعد رسوله ﷺ نصره، ويعلم يقينًا أن وعد الله ناجز لا يتخلف، فهو رضي الله عنه كان بإيمانه ويقين علمه وراء رسول الله ﷺ، يشهد ضراعته لربه ويسمع دعاءه له أن ينجز وعده بالنصر، ولكن الصديق لم يشهد إطلاق العبودية في ضراعة رسول الله ﷺ المستسلمة لقهر الربوبية، فانبعث بإيمانه وعلم يقينه معبرًا عن ذات نفسه وإشفاقه على رسول الله ﷺ ليخفِّف عنه ما يشهده من شدائد المناجاة الضارعة تحقيقًا لموجبات إيمانه وعلم يقينه رضي الله عنه.

والإيمانُ واليقينُ محدودان بالعلم والمعرفة، وعلمُ البشرية

ومعارفها محدودان بخصائص البشرية، فقال لرسول الله ﷺ ما أملاه عليه علمه ومعرفته، وهو في إهاب بشريته مخاطبًا رسول الله ﷺ بقوله: يا رسول الله، بعض مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

وبين المقامين: مقام عين اليقين بشهود العبودية المطلقة وهو المقام الذي كان فيه رسول الله ﷺ وهو يناشد ربه متضرعًا متذلّلًا، ومقام علم اليقين المكتسب برسوخ الإيمان والعلم بسنن الله في خلقه الذي كان فيه الصدِّيق في إشفاقه ـ من التفاوت ما بين الصدِّيقية المكتسبة من الإيمان بالرسالة والرسول، وبين الرسالة التي لا تكون أبدًا إلا بمحض الاصطفاء الإلهي الذي يفيضه الله عز شأنه على من يشاء من عباده، بما استأثر به من سننه الخاصة التي أكنّها في إخباره عنها إخبارًا ردّ أسرارها إلى علمه الخاص، الذي لا يطلع عليه أحدًا من خلقه كائنًا من كان، فقال تعالى:
﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

ومقام الرسالة أجمع لمعالم رسوخ الإيمان، وعلم اليقين، لا يفوته منها شيء قط، ويختص مقام الرسالة بمقام شهود عين اليقين، متدرجًا في مراتبه إلى أن يبلغ أعظم درجاتها، وهو مقام العبودية المطلقة.

والرسلُ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام درجاتٌ في مدارج العبودية كما قال جل وعلا: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وكما قال عز شأنه: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (الإسراء: ٥٥).

ورسولنا خاتم النبيين محمد ﷺ جعل الله مقام العبودية المطلقة أعظم مقاماته في مدارج رسالته الخاتمة الخالدة.

وبهذا المقام الأعز الأشرف أفرده الله تعالى بالثناء عليه في مقام ضراعته ومناشدته ربه، فقال له ليستخلص أصحابه من شهوات الركون إلى الدنيا بما كان منهم في الأنفال والغنائم فقال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال: ٤١)، وخصّه به في مقام التقريب الخاص الأقدس والشهود الأمجد، فقال عز اسمه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ (الإسراء: ١)، وبه نوّه الله تعالى في مقام أخص العبودية بدعائه والتضرع له، فقال عز وجل: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن: ١٩).

قال السيوطي في (الدر): أخرج عبد بن حميد، والترمذي والحاكم -وصححاه- وابن جرير، وابن مردويه، والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، قال: لما أتى الجن على رسول الله ﷺ وهو يصلي بأصحابه، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده عجبوا من طواعية أصحابه له، فقالوا لقومهم: لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدًا.

والصدِّيق رضي الله عنه في جلالة قدره، ومكانته من ذروة الإسلام، وأفضليته على جميع أتباع الأنبياء والمرسلين في رسوخ إيمانه، ويقين علمه؛ إنما هو نفحة من نفحات الإيمان بالنبوة الخالدة، والرسالة الخاتمة؛ وانبثاقة من ضياء إشراق الشمس محمد ﷺ بالهدى والنور، والخير والله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

وإشفاقه رضي الله عنه على رسول الله ﷺ في مقام المناشدة والتضرع بين يدي ربه -في موقف تكاثفت فيه الأزمات والشدائد على جماعة المؤمنين- لم يخرج عن كونه ثمرة من ثمرات حبه لرسول الله ﷺ، وحبه لرسالته.

وحُبُّه لرسول الله ﷺ إنما كان إبقاء على نفسه ليقود مجتمعه المسلم إلى آفاق الدعوة إلى الله حبًا بلغ به ذروة علم اليقين.

فليس هناك قط مجال لموازنة بين المقامين، بَلْه أن يصور مقام الصدِّيق في إشفاقه على رسول الله ﷺ تصويرًا يندّ عن مقام التوقير في مقام مجرى الإيمان.

هدفنا من الحديث عن الغزوات:

لم يكن قصدنا من بحث الغزوات تجميع الروايات ولا استيعاب الوقائع والأحداث، ولا سرد القصص، ولا تسجيل أسماء من شهدها من جند المجتمع المسلم، وأسماء من استشهد فيها، ولا أسماء من حضرها من أعداء الإسلام فهلك فيها، أو أفلت من القتل ووقع في ذلّ الأسر أو عاش في جو المهانة، ولا التنويه بالبطولات والأبطال، ولا ذكر مَن قَتَل مَنْ، فذلك كله مسطور مذكور قد أفعمت به كتب السيرة ودواوينها، فتضخمت به حتى أتخمت.

ولكننا -على نهجنا في البحث كله- استهدفنا من الحديث فيما تخيرناه من أمهات الغزوات وكبرياتها استخلاص منهج الرسالة الخاتمة الخالدة من ثنايا تطبيق الوقائع والأحداث التي أدتها إلينا صحائح الروايات، وطرائق تطبيقها عمليًا على يدي رسول الله ﷺ، وهو يقود كتائب جند الله في جهاد القتال دفعًا لاعتداء المعتدين من أعداء المجتمع المسلم، وإزالة للعقبات التي تعترض طريق تبليغ الرسالة ونشر الدعوة إلى الله، ذلك المجتمع الذي ربّاه رسول الله ﷺ تربية عملية سلوكية، تنبع من عقيدة التوحيد المحرِّرة للعقل الإنساني من أوضار الشرك بجميع شكوله وألوانه، وانحطاط الوثنية بجميع أنواعها وضروبها، والتعبد لغير الله تعالى من شيء أو إنسان حاكمًا أو محكومًا، تأسيسًا للحياة الإنسانية على دعائم العزّة البشرية والكرامة الإنسانية بإقامة موازين العدالة بين الأفراد والجماعات، هذه العدالة التي يجب أن

تقوم على أداء الواجبات واستيفاء الحقوق، فلا تظلم نفس شيئًا لتستقر الحياة بين الناس جميعًا على التعاون المتآخي والمحبة المتراحمة المتواسية.

فالقصد الأصيل من الحديث عن الغزوات أن نبرز ما في طوايا أحداثها من جوانب منهج الرسالة ليكون هذا المنهج الإلهي نبراسًا للأمة، تستضيء بنوره في مسيرتها التاريخية الأبدية المقدّرة لها في قيادة الحياة التي حمّل الله تعالى أمانتها لهذه الأمة المسلمة، فقال لها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

(آل عمران: ١١٠)

لأن هذا المنهج هو الذي أقام عليه النبي ﷺ بناء أمته العقدي والتعبدي والنظامي الاجتماعي في ربط علاقات الأمة الداخلية بين أفرادها وجماعاتها على مقتضى دواعي الإخاء الإيماني الذي أُرسيت قواعده في قول الله عز شأنه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)، وفي ربط علاقاتها الخارجية بينها وبين غيرها من الأمم والشعوب والدولات.

ولهذا كان جهدنا منصبًا بقدر ما آتانا الله من طاقة فكرية على تحقيق ما نعرض له من الحوادث التي نلمح فيها لوامع من منهج الرسالة، وتطبيقه عمليًا في توجيه رسول الله ﷺ للأحداث وجهتها التي تمثل سلطان منهج الرسالة عليها ـ تحقيقًا يرد الحوادث إلى منابعها، والوقائع إلى أسبابها ودوافعها، والأسباب إلى عواملها الاجتماعية المؤثرة في توجيهها وهي في مسيرة الحياة.

ولهـذا عنينا بالإفاضـة ـ بما يظن أنه تكرار لروايـات الوقائع ـ بتحقيق الأسـباب والدوافع التـي كانت ممهدة لأول وأعظم غزوة في تاريخ الإسـلام، وهي أول مواجهة قتاليـة بين طلائع المجتمع المسـلم فـي قلّة عدد الذيـن نهضوا للخروج مع رسـول الله ﷺ، وضآلـة عِدّتهـم وعتادهم، وبين مجتمع الفجـور في عتو كفرهم، وطغيانهـم، وغرورهم بكثرة عددهم، وباهظ عُدتهم وعتادهم من الرجـال والسـلاح والمؤن إلـى جانب ما أفعمت بـه صدورهم من الحقد الأسود، والطيش الأحمق.

وقد بيّنا في هذا التحقيق أن النبي ﷺ لم يكن يقصد في خرجته إلـى قتـال أحد، بل خرج ـ كما بسـطناه بسـطًا موثقًـا بالروايات الثابتـة في أسـاليب مختلفة ـ ليضع المجتمع المسـلم في تركيبه الاجتماعـي الجديد في عزته وقوة إيمانه بدعوتـه أمام قوة أعدائه المادّية الفاشـلة المتنفشة الذين أرادوا أن يدوسوا على كرامته في سـيرهم بعيرانهم وقوافل تجاراتهم مارّين على مدينته ومستقره، وهـم يحملـون إلى أموالهـم أموال طلائـع المجتمع المسـلم من السُّـبَّق الأولين، التي اغتصبوها نهبًا وسلبًا وظلمًا وعدوانًا يوم أن كانوا يستضعفونهم في مكة، ويصبون عليهم من صنوف العذاب والبلاء ما لا تطيق احتماله رواسي الشمّخ الراسخات.

ولكن طغاة ملأ قريش وشـياطينها وطواغيتها بقيادة فاسـقهم غميز الرجولية أبي جهل بن هشـام أبوا إلا أن يسـيروا بحشودهم الموعبـة لـكل مـا يملكون من قـوة مادية فـي الرجال والسـلاح والمـؤن ليهاجمـوا المجتمـع المسـلم ليتأصلـوه مـن على وجه

الأرض، مترحلين إليه من مكة في زحف جرّار، حتى وصلوا إلى (بدر) وعسكروا على مياهها وتأهبوا للقتال، لا يشكُون أنها جولة تقضي فيها كثرتهم الطاغية على القلة المؤمنة المجاهدة لإعلاء كلمة الله.

بهذا العرض لمقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة كشفنا عن الأحداث الهامة كشفًا لا يدع مجالًا لمتردد أو متقوّل، وهو في سياق الأحداث والوقائع صريح في أن تلك الأحداث والوقائع الممهدات لهذه الغزوة لم يدخلها شيء قط من الآيات السماوية والمعجزات المادية، وإنما كانت كلّها، قائمة على دعائم السياسة الحكيمة التي برزت في تطبيق منهج الرسالة تطبيقًا محكمًا مسدّدًا ومحفوفًا بتوفيق الله، مما يستطيعه كل من أخذ بزمام قيادة الأمة في مستقبلها، ويملك الدعوة إليه، والجهر به ورثة النبوة من العلماء العاملين والقادة الذين لا يخشون في الله لومة لائم، ولا يخافون سَوْرة طاغ، ولا يهابون ثورة فاجر عنيد، كما يملك أمر القيام بها الساسة المحنكون والدعاة إلى الله المستبصرون والجهابذة من ذوي الرأي الممحَّص والأفكار الثواقب المستنيرة.

وهذا نوع من تربية الأمة يقوم على العلم والعمل، العلم بحقائق الرسالة وأحكامها وشرائعها، والعمل الذي يجعل من الرسالة منهجًا عمليًا تطبيقيًا تعيش الأمة في ظله حياتها كلها ممثلة في جميع شئونها العقائدية والتعبدية والسياسية والاجتماعية، وبهذه التربية تضمن الأمة ألا يقع زمام قيادها

في يـد جهول، يتلعـب بمقدراتها فـي حاضرها ومسـتقبلها ليفسد عليها حياتها ويرديها في مهاوي المهالك.

تربية الأمة على مقتضى منهج الرسالة يصحح وضعها الاجتماعي:

وبهـذه التربية تسـتطيع الأمـة أن تذود بكل مـا تملك من قـوة فكريـة أو ماديـة عن حمـى قيادها كل سـليط اللسـان، مظلـم القلب، منافق السـلوك، لا يعنيه من أمرها في حاضرها ومسـتقبلها إلا كلمات مزخرفات، تقال وتنشـر هنا وهناك، خاوية من حقائق منهج الرسـالة، بعيـدة عن التطبيق العملي، الذي أخذ به النبي ﷺ مجتمعه المسـلم في قيادته له وتربيته تربيـة تعـدّه لقيادة الإنسـانية قيـادة ترفعها عـن الإخلاد إلى الأرض، صاعـدة بهـا إلـى آفـاق التحـرر العقـدي والتعبـدي والاجتماعي والسياسـي أداء لحـق اختيارها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمرًا ونهيًا لا يقفان عند معايير منحرفة عن سواء المنهج الإلهي الذي لا يفرق في إقامة العدل بين الأشـخاص والأمم، فالناس في شرعة المنهج الإلهي سواسية، لا فضل لراع على مرعي، ولا ميزة لكبير على صغير، ولا لقائـد على أصغر جندي، ولا لغني على فقير، ولا لحاكم على محكـوم، ولا أمير على مأمور، وليس في المنهج الإلهي سائد ومسود، ولا شريف ومشروف، فالنبي ﷺ يقول وهـو يعدّل صفوف جنده لسـواد بن غزيّـة، وقد وجده خارجًا

عن الصف، فغمزه بقدح معه وقال له: «استو يا سواد»، فقال سواد: أوجعتني يا رسول الله وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، فكشف النبي ﷺ عن بطنه وقال: «استقد يا سواد»، فالإنسانية كلها في منهج الرسالة الخاتمة وحدة من أب واحد وأم واحدة، والناس في هذه الوحدة الرّحمية متساوون في الحقوق والواجبات، لا تفاضل بين أفرادهم وجماعاتهم إلا بالعلم بالمنهج الإلهي وموجباته، وتطبيق هذا العلم في وقائع وأحداث يحتضنها الوجود الواقعي في الحياة.

المجتمع المسلم لم يقم بناؤه على المعجزات المادية ولكنه قام على العلم والعمل والصبر على المحن:

والله تعالى لم يقم بناء هذه الأمة المسلمة على المعجزات ليجعلها كسيحة التفكير متواكلة الحركات، متربصة للحظوظ والمصادفات، وإنما أقام بناءها على أساس وحدة إيمانية متماسكة العرى وثيقة الروابط، ووحدة مؤاخاة تكافلية، تجعل من الفرد لبنة في بناء شامخ، تحمل نصيبها في تماسك البناء، والتكافل عمل متواصل موصول بالحياة الاجتماعية المتحركة في إطار المنهج الإلهي الذي جعلته الرسالة أساسها في رسوخ الإيمان.

وللمعجزات مناسبات خاصة تقتضيها فتقع عندها، فتكون في وقتها لونًا من ألوان العمل التربوي لإنقاذ الموقف إذا أحاطت به الأزمات واكتنفته الشدائد، وهي مع الإنقاذ

تبشـير يحـرك العزائم حتى تمضـي قدمًا إلى الهدف شـاكرة متحـرزة، والمعجـزات لا تأتي في منهج الرسـالة الخاتمة إلا بعد إعداد تربوي يداخلها في نطاق العمل المحفوف بالتأييد الإلهي المسدد بالتوفيق.

وقد عرفنا أنه لم يكن قط في مقدمات هذه الغزوة العظيمة المباركة، غزوة (بدر)، ما يتطلب معجزة مادية، وإنما كان أمر هذه المقدمات تدبيرًا يحتاج للحكمة، وتفكيرًا يضع الحقائق في مواضعها التي يجب أن توضع فيها، وكانت سياسـة حازمة تمضي بالأحداث إلى أهدافها، وكان فيها مواقف آزمة تتطلب تقويـة العزائـم المؤمنة لتقف أمـام الطغيـان المتجبر مواقف حازمة، وكان فيها مغالق تسـتدعي أن تفتح بالشـورى، وكان فيهـا تجـارب تقتضي الحنكـة والدربـة، وكان فيها مفاجآت تسـتلزم الصبر والمعرفة، وكان فيها مواضع للتجربة تتطلب التقـدم بالرأي النصـوح كما تتطلب قبولـه والعمل به، وكان فيها غوامض لا تُسـتجلى مساتيرها إلا بتحسسها، وكان فيها مظاهر لا تقاوم إلا بمثيلاتها.

وكل ذلـك قـام به النبي ﷺ قبل التحـام القتال على أفضل وأحسـن ما يقوم به قائد يقود جنـده إلى ميدان لم يكن القتال فيـه مقصدًا من مقاصده، ولكنه حُمل عليه حملًا، وألجئ إليه إلجـاء بعد أن لم يكن له سـبيل في توقِّيه وتجنبـه، مع انعدام التكافؤ المادي بين الجمعين.

والتقـى الجمعـان، وتواجـه الفريقان، وبرقت السـيوف،

واستطالت الرماح، ووترت القسي، وكشرت الحرب عن أنيابها، وتزاحف الفريقان، وتنادى الأبطال للقتال، ودخل النبي ﷺ إلى عريشه وهو ينظر إلى جنده فيرى قلّة عددهم وضعف عدتهم، وينظر إلى أعدائه وأعداء مجتمعه المسلم فيرى كثرتهم وقوة عتادهم المادية وشدة كَلِبهم على جند الله، فيأخذه الإشفاق على أصحابه بمقتضى طبيعته البشرية، بل يستحوذ عليه ﷺ حرصه على رسالته، وتستولي عليه الخشية أن لا يُعبد الله في الأرض إذا أصيب حماة دعوته بأيدي هؤلاء الطغاة الوثنيين الذين إذا تمكنوا منهم فلن يبقوا على أحد منهم يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا.

استنزال النصر بمنادح العبودية المطلقة:

وهنا يرى رسول الله ﷺ انقطاع الأسباب الأرضية المادية لنصر الله أصحاب رسول الله ﷺ الذين يجاهدون معه لحماية دعوته إلى الحق، وحمايته ﷺ حتى يؤدي رسالة ربه، ويرى أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن النصر لهذه القوة المؤمنة لا يكون إلا بمدد غيبي من الله ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفتح: ٤) ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١)، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦)، فيلبسه الله تعالى خِلَع العبودية المطلقة التي لا يشهد في مشاهدها الروحانية إلا انطلاق الألوهية في نفاذ إرادتها ومواقع مشيئتها

مــن جميع قيــود الأســباب والمســبّبات، ويلجــأ ﷺ إلى الله مجردا من قيود البشــرية، يستنصر به ضارعًا متذلِّلاً بين يدي ربه باســطًا أكف الرجاء، متســربلًا رداء الخشية والخوف، لا على نفســه ﷺ ولا على أصحابه، ولكن على رســالته رســالة الحــق التــي بعثــه الله بها تفريدًا لله عز شــأنه بحــق المعبودية الحقة فلا يعبد أحد سواه، ولا يشرك معه آلهة من دونه، هاتفًا بربه يستنصره: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد».

وقد اختلفت عبارات الرواة في أسلوب هذه المناشدة، ففي البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قية له -المراد بهذه القبة العريش الذي بني له ﷺ بإشــارة ســعد بن معــاذ -يوم بدر: «اللهم إني أنشــدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا».

وفــي حديث حكيم بــن حزام عند الواقــدي من طرق قال: حضر القتال ورســول الله ﷺ رافع يديه يســأل الله النصر، وما وعده، يقول: اللهم إن ظهروا على هذه العصابة ظهر الشــرك ولا يقوم لك دين".

❀ ❀ ❀

الفهرس